الدين .. والدجل
(٣)

القرآن..
والأيدي الآثمة

مقالات قصصية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

الدين .. والدجل

(3)

القرآن.. والأيدي الآثمة

مقالات قصصية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

(القرآن الكريم هو حبـل اللـه المـتين.. وهـو الـذكر الحكيم، والصراط المستقيم.. وهـو الـذي لا تزيـغ بـه الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يشبع منـه العلمـاء، ولا يخلـق على كـثرة الـرد، ولا تنقضـي عجائبـه.. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عـدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم..)

هـذه العبـارات وغيرهـا نسـمعها كثـيرا.. ونرددهـا كثيرا.. ولكنا عند التأمل في حياتنا بجوانبهـا المختلفـة نجد الهوة السحيقة بين تلك الأوصاف العظيمة، وبين واقعنا الممتلئ بالمآسي.

ولـذلك فإنـا في هـذه المقـالات نحـاول أن نتلمس بكـل هـدوء تلـك الانحرافـات الـتي جعلت المسـلمين ينحرفون عن هدي كتابهم، بـل يشـوهونه.. فيحولونـه من كتاب هداية وتبصرة وذكـرى وموعظـة إلى كتـاب تــاريخ وأســطورة وخرافــة وشــعوذة وإرهــاب.. أو يعطلون معانيه.. أو يحرفونها تحريفا شديد.

وقد أخـبر اللـه سـبحانه وتعـالى أن هـذا الانحـراف سيقع في هذه الأمة كمـا وقـع في غيرهـا من الأمم.. قال تعالى: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَشَـابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَـا يَـذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [آل عمران: 7]

فقـد وجـد في تاريخنـا وتراثنـا الكثـير ممن يتتبـع المتشـابه، ويفسـر الـدين على أساسـه.. بـل يـؤول المحكم لينسجم مع هواه.. تاركا الراسخين في العلم الـذين أخـبر اللـه أنهم يـدركون المحكم، ويفقهـون المتشابه.

ولذلك تحول القرآن الكـريم بواسـطة تلـك الأيـدي الآثمـة إلى كتـاب يحض على الكراهيـة، ويـدعو إلى الأسطورة، وينشر الخرافـة، ويحـرض على الإرهـاب، ويفرق بين الناس على أسس عنصرية مقيتة.

وهذا نفس ما حصل في الأمم السابقة التي هجرت كتابها أو حرفت معانيه.. كما قـال تعـالى: { وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْـتَرَوْا بِـهِ ثَمَنًـا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْـتَرُونَ } [آل عمـران: 187]، وقـال: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيـقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ كِتَـابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [البقرة: 101]

وممـا ورد في تفسـير هـذه الآيـات قـول الإمـام الجواد: (وكل أمة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبـذوه وولاهم عـدوهم حين تولـوه، وكـان من نبـذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونـه، والجهـال يعجبهم حفظهم للروايـة، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية)(1)

وقـد أشـار أبـو حامـد الغـزالي إلى النبـذ الخطـير لجواهر القرآن وحقائقه العظيمة، فقـال: (إني أنبهـك

1) الكافي: 8 / 53 / 16..

على رقـدتك، أيهـا المسترسـل في تلاوتـك، المتخـذ دراسـة القـرآن عملا، المتلقـف من معانيـه ظـواهر وجملا، إلى كم تطـوف على سـاحل البحـر مغمضـا عينيك عن غرائبها؟ أوما كان لك أن تركب متن لجتهـا لتبصر عجائبها؟ وتسافر إلى جزائرها لآجتناء أطايبها؟ وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها؟ أوما تعير نفسـك في الحرمـان عن دررهـا وجواهرهـا بإدمـان النظر إلى سواحلها وظواهرها؟ أوما بلغك أن القـرآن هـو البحـر المحيـط؟ ومنـه يتشـعب علم الأولين والآخـرين كمـا يتشـعب عن سـواحل البحـر المحيـط أنهارها وجداولها؟ أوما تغبط أقواما خاضوا في غمـرة أمواجهـا فظفـروا بـالكبريت الأحمـر؟ وغاصـوا في أعماقها فاستخرجوا اليـاقوت الأحمـر، والـدر الأزهـر، والزبرجد الأخضر؟)[1]

وقد أشار قبل ذلـك كلـه رسـول اللـه ﷺ حين ذكـر الفئـة الباغيـة الـتي تنحـرف بالأمـة انحرافـا شـديدا، فجعـل من أهم أوصـافها إقامتهـا لحـروف القـرآن، وإعراضـها عن معانيـه وحقائقـه ومقاصـده، ففي الحديث عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قـال رسـول الله ﷺ: (إن بعـدى من أمـتى (أو سـيكون بعـدى من أمـتى) قـوم يقـرأون القـرآن لا يجـاوز حلاقيمهم يخرجون من الدين كما يخرج السـهم من الرّميّـة، ثم لا يعودون فيه، هم شر الخلق والخليقة)[2]

وفي حديث آخر قال رسول اللـه ﷺ: (سـيكون في أمتي اختلاف وفرقه؛ قوم يحسنونَ القيـلَ، ويسـيئون الفعلَ، يقرءونَ القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرّميّة، لا يرجعون حتى يرتـد

1) جواهر القرآن (ص: 21)

2) رواه مسلم.

على فُوقِـهِ؛ هم شـر الخلـق والخليقـةِ، طَـوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منـه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم)(1)

وبنـاء على هـذه الـدعوة من رسـول اللـه ﷺ لمواجهتهم وحربهم كانت هذه المقالات..

فنحن لا ننقدهم أو نحذر منهم لشهوة في نفوسـنا، وإنما لأنه لا يمكن أن يعـرف النـاس دين اللـه، ولا أن يعيشوا في صحبة كتاب اللـه، وهم يـرون المنحـرفين عنـه هم الـذين يمثلونـه في الإعلام والمنـابر وكـل المنصات..

وقد بدأ التحذير من هـذه الأيـدي الملوثـة في عهـد رسول الله ﷺ نفسه، وفي القرآن الكريم..

فعندما يقول الله سبحانه وتعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِـلَّ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَـذَابٌ مُهِينٌ } [لقمـان: 6] فإنـه يشـير إلى أولئـك الأسـطوريين الـذين حولـوا الحقائق القرآنية الجميلـة إلى حكايـات لا تختلـف عن حكايات ألف ليلة وليلة، أو حكايات رسـتم واسـفنديار التي كان يحكيها النضر بن الحارث ليشغل بها النـاس عن حقائق القرآن الكريم المتضمنة في قصصه.

وعندما يذكر القرآن الكريم آلام رسول الله ﷺ وهو يشكو إلى ربه قومه قائلا: { يَارَبِّ إِنَّ قَـوْمِي اتَّخَـذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا } [الفرقان: 30]، فإنه يشير إلى ذلـك التعطيـل لحقـائق القـرآن الكـريم المرتبطـة بـالأنفس والآفـاق، والـدنيا والآخـرة، والانشـغال عنهـا بعلوم كثيرة، وتوافه كثيرة.

وعندما يـدعو القـرآن الكـريم إلى الاعتصـام بحبـل الله وعدم التفرق، كما في قوله تعالى: { وَاعْتَصِـمُوا

1) رواه أبو داود (4765)

بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا } [آل عمران: 103]، فإنه يشير إلى أولئك { الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [الأنعام: 159]

وهكذا نجد القرآن الكريم نفسه ينبهنا إلى أن الأمة ستعطل كتاب ربها في كل شؤون حياتها..

وبناء على هذا حاولنا في هذه المقالات أن نرسم صورة لتلك التشويهات التي طالت القرآن الكريم.. وذلك لغرضين:

الأول: هو التنبيه إلى خطورتها وضلالها وانحرافها، وأن القرآن الكريم أسمى من أن تعبر عنه تلك الأيادي الملوثة، وتلك العقول المشوهة.

الثاني: هو الدعوة لإعادة قراءة قرآن الكريم غضا طريا كما أنزله الله، وكما فهمه أولياء الله الذين هم الصراط المستقيم الذي أوصانا الله بالتمسك به، والاهتداء بهديه.. وسنكتشف حينها فقط حقيقة مقولة الإمام علي كرم الله وجهه: (فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه)[1]

1) نهج البلاغة: الخطبة 147.

الإشارة.. والعبارة

في ذلك اليوم قدر الله لي أن أسمع سورة قرآنيــة واحــدة من عقلين وقلــبين مختلفين تمامــا.. مختلفين في المشرب، وفي السلوك، وفي التعامل مع قضــايا الحياة المختلفة..

وقــد تعجبت في البدايــة عن ســر ذلــك الاختلاف الشاســع بينهمــا مــع أن كليهمــا يرفــع رايــة القــرآن الكريم، ويـدعي أنـه خادمـه وتلميـذه، ولكليهمـا أتبـاع وأصحاب.. ولكن مـع ذلـك كانـا، وكأنهمـا من ديـانتين مختلفتين تماما..

عندما عدت إلى بيتي في الليل بعد مروري عليهما، وبعد محاولة تحليل ما رأيت وما سمعت عــرفت ســر قوله تعالى: { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّــلُ بَعْضَــهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد: 4]، وعــرفت أن التفضــيل لا يعني التنوع فقط، كالتفضيل الذين نراه بين التفــاح والبرتقال وغير ذلك من الفواكه.. وإنما قد يعني أيضا التفضـيل بين العشـبة الـتي جعلهـا اللـه ترياقـا لكـل الأدواء، وبين العشبة التي جعلهـا سـما زعافـا تقضـي على كل صحة وعافية.

ولأدع لكم الفرصة لتكتشفوا ما اكتشفت، وتحكموا بمــا ترونــه، ســأحكي لكم الحكايــة كمــا حصــلت.. ولا تحسبوا أنها حكاية من وحي الخيال.. إنها بنت الواقــع المؤلم الذي نعيشه.. ولكنها محروسة بالرمز.. فالذي يفهم الرمـز، ويفـك شـيفرته سـيفهم المـراد العميـق منها.. والذي يفهم العبارة، ولا يجاوزهـا إلى الإشـارة، فحسبه أن يرى قشرتها، وينعم بالنظر إلى طلائها.

الإشارة:

مررت عليه وهو على كرسيه الذي تعــود أن يجلس عليه بين مريديه وتلامذته.. وكان القارئ يقــرأ ســورة

العصر بترتيل خاشع جميل.

بعد أن انتهى من قراءتها التفت الشيخ إلى المحيطين حوله، وقال: سنحاول أن نستمع للمعاني التي أراد الله إبلاغنا إياها من خلال هذه السورة الكريمة(1)..

إن القسم بالعصر في هذه السورة يفيد كون الإنسان يجهل خسرانه، ويبعد أن يدركه ما دام لا يشعر بحقيقة ما كان عليه قبل تعلّق الروح بالجسم المعدني.. أمّا لو تخيل ذلك.. عندما كان جوهرا خالصا متخلّصا من عموم المواد، وسائر لوازم الفساد، لاعترف بخسرانه بالنظر لما هو عليه الآن، ومن أين له أن يدرك ذلك، وهو مكبل بشهواته، مسجون في ظروف طبيعته، وتلك الحالة هي أبعد المراتب، وأقصى الغايات التي تبعد به عن نيل سعادته الأبديّة.

وكذلك يبقى ما دامت بصيرته لم تنفذ إلى ما وراء هذه الظروف المحدقة به، ولكن لا تنفذ إلاّ بتصريح برهان { فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } [الرحمن: 33]، وإذ ذاك يدرك خسرانه بالنسبة لما كان عليه قبل تعلّق الروح بالبدن، ولو تخيّل ذلك لما احتيج للتوكيد.

قال بعض الجالسين: لقد شوقتنا يا شيخنا.. فحدثنا عن عوالم الجمال التي كان يعيشها الإنسان قبل نزوله إلى هذا العالم.

قال الشيخ، وهو شاخص البصر، وكأنه يرى ما لا نقدر على رؤيته، أو كأنه يشاهد شيئا، وهو يصفه كما

---

1) اقتبسنا هذا التفسير الإشاري بتصرف من (رسالة مفتاح علوم السر في تفسير سورة والعصر) للشيخ ابن عليوة، باعتباره هو شيخ الإشارة في هذه الحكاية.. وخصمه السلفي الذي كفره هو شيخ العبارة.

يشاهده: في تلك العوالم الجميلة كانت الروح في كرامة عظيمة وحالة جسيمة، تتلّقى أمرها من الله من غير واسطة، وتجيب جوابا خاليا من كلّ شبهة.. ولم تفقد حظّها من تلك الكرامة ولو بعد هبوطها وتعلّقها بأول جسم للإنسان فإنّه توجها بتاج العلم، وكلّلها بإكليل الفهم، وعلمها ما لم تكن تعلم، وكفاها أنّه أسجد لها الملائكة، وعموم الأرواح كالذر وفي ظهر آدم.

قال تلميذ آخر: فكيف انتقل الإنسان من تلك الأحوال السامية إلى الأحوال الحيوانية، وما قدر الخسارة التي خسرها بسبب ذلك؟

قال الشيخ: إنّ رابطة الجسم أكسبت الروح صبغة غير التي كانت عليها، فلم يشعر الإنسان إلاّ وهو نوع من أنواع الحيوان يعمل بحكم الطبيعة داخل الجنس العام، وشتان ما بين المرتبتين.. بين حال الإنسان الأوّل، وحال الإنسان الثاني.. فعلى ما يقتضيه البون الشاسع بين الرتبتين صار كأنّه لم يكن هو.. بل ليس بمستبعد إن قلنا: إنّ الإنسان الأول هو غير الإنسان الثاني مهما كان يطلق لفظ الإنسان على المعنيين.

قال تلميذ آخر: أنت تشير بهذا إلى الحقيقة الإنسانية، وأن ما عليه الإنسان الآن ليس سوى نشأة من النشآت، وأن هناك نشآت كثيرة سابقة، كان الإنسان فيها في أعلى عليين..

قال الشيخ: أجل.. وقد عبر العرفاء عن ذلك النزول بـ (قوس النزول).. ويعنون به ذلك العالم الذي يبدأ من العقل والمجردات التامة والملائكة المقربين، وينتهي إلى أدنى موجود وهو الهيولى والمادة الأولى لعالم الطبيعة.

قال التلميذ: وجود قوس نزول يقتضي وجود قوس

صعود.

قال الشيخ: أجل.. وهي التي أشار إليها قوله تعالى: { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة: 46]، وقوله: { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة: 156]

قال التلميذ: فكيف يحدد مصير الإنسان في قوس الصعود؟

قال الشيخ: هذه النشأة هي المنطلق لتحديد مصير الإنسان النهائي.. فباستطاعة الإنسان أن يتدارك ما فاته من عزّة.. وليس ذلك إلاّ أن يكون بالروح إنسانا، وذلك يتم بالتحقق بمقتضى قوله تعالى: { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر: 3]

فالخلاص النهائي لا يتحقّق ولا يتصوّر بمعناه اللازم إلاّ باستجماع تلك الخصال الأربعة وهي: الإيمان، والأعمال الصالحة، والتواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر عليه، أمّا إذا فات الإنسان - والعياذ بالله - حظّه من الإيمان في هاته الحياة، الدنيا فقد خسر خسرانا مبينا يجعله يقول يوم يرى سعادة السعداء بالنظر إلى شقاوة الأشقياء: { يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا } [النبأ: 40]

أمّا إذا نال حظّه من الإيمان في هاته الدنيا بالقدر الذي يفصله عن محيط الكفران بالله ورسوله، فقد يتقدّم بذلك شوطا غير قصير في سبيل سعادته ونيل بغيته.

ولكن لا تثبت أقدامه في ذلك الدور إلاّ بالأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة هي جنس يدخل تحته أفراد كلّ فعل محمود، ويخرج منه كلّ فعل مذموم.

وهذا الدور يعتبر أرفع درجة في نيل السعادة غير أنّه لا تستقر أقدام صاحبه استقرارا تاما إلاّ مع التواصي بالحقّ، ومن لم يتواص بالحقّ قل أن يصبر في طريق الحقّ، بناء على أن رأس الأعمال الصالحة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن لم ينه ويأمر يخش عليه يوما من الأيام يصبح فيه حيث لا نهي ولا أمر.

وهكذا يسير المؤمن من العرفان إلى الشريعة، فيتمسك بها، فلا طريق إلى الله إلا من خلالها.

أصابتني رعشة شديدة، وأنا أسمع لهذه الكلمات.. لقد كانت تنبيهات قوية تنبه كل راقد وقاعد وراكن إلى الدنيا ليقوم بالاستعداد لصناعة مصيره الأبدي قبل أن يتحسر حسرة لا حد لها..

ظل الشيخ يردد ذلك، ويشرحه بطرق مختلفة، وكان تلاميذه وكأن على رؤوسهم الطير سكونا وخشوعا.. وكان المكان البسيط الذي كنا نجلس فيه قد تحول إلى قطعة من عالم الملكوت الواسع الجميل.

بعد أن انتهى الشيخ من درسه، التفت إلى مريديه، وقال: من فهم منكم من السورة شيئا آخر، فليتقدم به.. فأنتم تعلمون أن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه، ولا تفنى عطاياه.

رفع أحد التلاميذ يده، وقال: يا شيخ.. ائذن لي أن أطرح لك إشكالا وقع لي، ولبعض زملائي.. ولكن لا علاقة له بالسورة الكريمة.

أذن له الشيخ، فقال: سيدي مع احترامنا لك ولمجلسك، وللعلوم العظيمة التي نستفيدها منك، ولما نراه من تأثيرها على حياتنا جميعا.. إلا أن هناك من يعيبون علينا جلوسنا بين يديك.. وهم يذكرون لنا

بأنك لا تحمل أي إجازة من مشايخ الحديث أو اللغة أو غيرها حتى يتاح لك أن تتكلم في القرآن الكريم.. بل يذكرون لنا أنك أمي.. وليست لك البلاغة الكافية التي تؤهلك للحديث عن القرآن الكريم.. لقد ذكروا لنا أن من يرفع المنصوب، وينصب المرفوع أقل من أن يفهم القرآن لنفسه، فكيف يفهمه لغيره.

ابتسم الشيخ، وقال: لقد ذكرتني يا بني بشبابي الباكر عندما كنا ننشغل فيه بالنحو والصرف والبلاغة عن الكنوز العظيمة التي يحويها القرآن الكريم..

كنا حينها نأتي بالآية الواحدة، ونعربها بالوجوه الكثيرة.. وننتفخ مع كل إعراب.. ثم لا نلتفت لمعناها، ولا نعيشه.. بل لا تزيدنا تلك القدرات التي أتيحت لنا إلا حجابا عن فهم القرآن.. حينها التقيت شيخا من العارفين، قال لي: (أقبح كلّ قبيح أن يتعلّم الإنسان نحو اللسان ويعلّمه، ولا يتعلّم نحو القلب ويعلّمه، مع أنّه محلّ نظر الربّ، فإذا كان نحو اللسان مع نحو الجنان كان صاحبهما في أمان، ولا يخشى عليه الخسارة والخذلان، يوم وقوفه بين يدي الرحمن، لأنّ الله تبارك وتعالى لا يثيب العباد على إعرابهم، وإنّما يثيبهم على قلوبهم) [1]

والتقيت آخر، قال لي: (ما عرفنا من النحو إلاّ إعراب قوله تعالى: { إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [النور: 32]، إنّ حرف شرط، ويغنهم جواب الشرط، والمقصود بالغنى الغنى الأكبر فيكون خطابه للمتوجهين على طريق أهل الإشارة) [2]

وحكي لنا آخر أن بعض النحويين دخل مجلس الحسن بن سمعون ليسمع كلامه فوجده يلحن،

1) ابن عليوة، المنح القدوسية، ص20.

2) ابن عليوة، المنح القدوسية، ص21.

فانصرف ذامّا له، فبلغ ذلك الحسن، فكتب لـه: (إنـك من كـثرة الإعجـاب رضـيت بـالوقوف دون البـاب، فاعتمدت على ضبط أقوالك مـع لحن أفعالـك، وإنـك قـد تهت بين خفض ورفـع ونصـب وجـزم، فـانقطعت عن المقصـود، هلّا رفعت إلى اللّـه جميـع الحاجـات، وخفضـت كـل المنكـرات، وجـزمت عن الشـهوات، ونصبت بين عينيك الممـات؟ واللّـه يـا أخي مـا يقـال للعبد لم لم تكن معربا، وإنما يقال له: لم كنت مذنبا؟ ليس المـراد فصـاحة المقـال، وإنمـا المـراد فصـاحة الفعال، ولو كان الفضـل في فصـاحة اللسـان، لكـان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسـى، حيث يقول: وأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً [القصص: 34])(1)

حين سمعت هذا جلست لمشـايخي من العـارفين.. وقد رأيت من أنوار الفهم عندهم ما فتح لقلبي أنــوار الحقـائق الـتي كنت محجوبـا عنهـا بظلمـات نفسـي، وظلمات الغرور الذي كانت تمتلئ به.

سكت قليلا، ثم قال: أنا لا أقـول لكم يـا أبنـائي.. لا تعربوا القـرآن.. أو لا تبحثـوا عن اسـتعارته ومجـازه.. وإنما أقول لكم: عيشوا القرآن.. واسمعوه من اللـه.. فلا يفقه القرآن من لا يسمعه من ربه.

قال التلميذ: وهذا أيضا مما يعترضـونه علينـا.. إنهم يذكرون لنا أننا نكفـر بـذلك.. فرسـول اللـه ﷺ وحـده الذي سمع القرآن من الله.. بـل إنـه سـمعه من اللـه بواسطة جبريل عليه السلام.

ابتسم الشيخ، وقال: ألم يقرؤوا قوله ﷺ في حديث الولاية: (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسـمع به)(2) فـ (والصـفة لا تنفـك عن موصـوفها، ولا تظهـر إلا من

1) إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 386.

2) صحيح البخاري (8/ 131)

حجاب لبسها، { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } [الشورى: 51] موسى عليه السلام لما سمع خطابا من جانب الطور الأيمن لم يستدل على أنه كلام الله يكلمه به إلا به من أجل ما أعطي من سلامة الذوق وصحة الوجدان، وهكذا الواحد منا مهما تقوى يقينه وانشرح باطنه فيما يسمعه من ألفاظ القرآن، فلا يراه إلا كلاما يكلمه الله به في ذلك الحال، ولا يستدل عليه إلا به لما يجده في قلبه من تأثير النزول ورعدة الزواجر)(1)

لقد ذكر لي شيخي بعض ما يحصل لسامع القرآن من الله من تأثير حين سماعه، فقال: (وهكذا لما ينزل به على محمد ﷺ يحصل من تأثر النزول ما ترتعد به مفاصله، ولن يزال هكذا مهما مر على قلب فارغ من الكدورات إلا ويحدث فيه من تأثير النزول، وقد كان لي نصيب من ذلك والحمد لله، فكنت مهما يطرق سمعي كلام الله فترتعد بوادري عن الفحص حتى كأني أسمع حسيسا من بقية صلصلة الجرس، وكنت إذا ما تناولت المصحف الكريم نتناوله بيد التبجيل والتعظيم، وأراه كتابا وصل إلي من حكيم عليم.. وبهذه الخاصية والحمد لله أطلعني الله على بعض من جواهره)(2)

قال التلميذ: لو قلنا لهم ما ذكرته الآن لرمونا بالحجارة.

قال الشيخ: فقولوا لهم(3): إن مرادنا من سماع القرآن من الله لا يعني إلا أننا نعتبره خطابا مباشرا من الله لنا.. أي أننا المقصودون بكل خطاب في القرآن الكريم، فإن سمعنا أمرا أو نهيا قدرنا أننا

---

1) ابن عليوة، البحر المسجور، ص19.

2) البحر المسجور: 19- 20.

3) انظر: إحياء علوم الدين (ج1/ 285)

المنهيـون والمـأمورون.. وإن سـمعنا وعـدا أو وعيـدا فكمثـل ذلـك.. وإن سـمعنا قصـص الأولين والأنبيـاء علمنا أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليـه فمـا من قصـة في القـرآن إلا وسـياقها لفائـدة في حـق النـبي ﷺ وأمتـه ولذلك قال تعالى { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُـلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُـؤَادَكَ وَجَـاءَكَ فِي هَـذِهِ الْحَـقُّ وَمَوْعِظَـةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [هود: 120] فليقدر العبد أن اللـه ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيـذاء وثبـاتهم في الـدين لانتظـار نصـر اللـه تعالى.

وكيف لا يقدر هذا، والقـرآن مـا أنـزل على رسـول اللـه ﷺ لرسـول اللـه خاصـة، بـل هـو شـفاء وهـدى ورحمة ونور للعالمين، ولذلك أمر اللـه تعـالى الكافـة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى: { وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَـابِ وَالْحِكْمَـةِ يَعِظُكُمْ بِهِ } [البقـرة: 231]، وقـال عـز وجـل: { لَقَـدْ أَنْزَلْنَـا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ } [الأنبيـاء: 10].. وغيرها من الآيات الكريمة، وإذا قصد بالخطاب جميـع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارىء الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال اللـه تعـالى: { وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـذَا الْقُـرْآنُ لِأُنْـذِرَكُمْ بِـهِ وَمَنْ بَلَـغَ } [الأنعـام: 19]، وقـد قـال بعض مشـايخنا بعـد قراءته للآية الكريمة: (من بلغه القـرآن فكأنمـا كلمـه الله)

وفي هذه الحالة، وعند تقديره أنه المقصود من كل خطاب، لم يتخذ دراسة القرآن عمله، بل يقـرؤه كمـا يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه، ليتأمله، ويعمل بمقتضـاه، ولـذلك قـال بعض مشـايخنا: (هـذا القـرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده نتـدبرها في الصـلوات، ونقـف عليهـا في الخلـوات، وننفـذها في

الطاعات والسنن المتبعات)

وكان بعض مشايخنا في الزاوية يزورنا، ونحن نحفظ القرآن أو نراجعه، ويقول: (ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن، إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض)

قال تلميذ آخر: إنهم يا شيخنا يقولون لنا: إنكم لن تستفيدوا من تلك الإشارات إلا بعدا عن حقائق القرآن.. فالقرآن عبارة لا إشارة.. وقد يخطئ الإنسان في الإشارة.. لكنه لن يخطئ أبدا في العبارة، لأنها محروسة باللغة والإعراب والبلاغة وكلام أساطين المفسرين.

قال الشيخ: ليس الشأن يا بني أن نعرب القرآن أو نستخرج درر بلاغته.. الشأن أن نتأثر بالقرآن.. فالقرآن يحدث في قلب الإنسان آثارا مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره.

وهكذا فإن قلب المؤمن إذا تمت معرفته تغلب عليه الخشية في عامة أحواله، لأن ذلك من مقاصد القرآن الكريم لتربية النفوس وتطهيرها.. ولهذا لا نرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل: { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ } [طه: 82]، ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: { لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } [طه: 82]

ومثل ذلك السورة التي كنا نحاول أن نسمعها من الله، فقد ذكر الله أربعة شروط لتحقيق الفوز والفلاح.

ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن، ولذلك كان بعض مشايخنا يقول: (والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه،

وقل فرحه، وكثر بكاؤه، وقل ضحكه، وكثر نصبه وشغله، وقلت راحته وبطالته)

وقال شيخ آخر، وقد رآنا ننشغل بالروايات والأحاديث عن القرآن الكريم: (نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئا أرق للقلوب ولا أشد استجلابا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره)

وهكذا فإن تأثر العبد بالتلاوة تجعله يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح.

وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته.. وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل يغض صوته، ويكسر في باطنه حياء من قبح مقالتهم.

وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها.. وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها.

وإذا قال: { رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [الممتحنة: 4] ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيا.

وإذا قال: { وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا } [إبراهيم: 12] فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة.

فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى: { أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } [هود: 18]، وهكذا في كل موضع فيه لعنة.. ولهذا ورد في الحديث: (رب تال

للقرآن والقرآن يلعنه)[1]

وإذا لم يكن يقرأ بهذه الصفة كـان داخلا في معـني قوله عز وجل: { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَـابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } [البقرة: 78] يعني التلاوة المجردة.

وقـد أشـار القـرآن الكـريم إلى هـذا في قولـه عـز وجـــل: { وَكَـــأَيِّنْ مِنْ آيَـــةٍ فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَـا مُعْرِضُـونَ } [يوسـف: 105]، لأن القـرآن هـو المـبين لتلـك الآيـات في السـموات والأرض.. ومهما تجاوزهـا ولم يتـأثر بهـا كـان معرضـا عنها.

كان بعض مشايخنا يمر علنا، ونحن نقرأ القرآن في الزاويــة، ويقــول لنــا: (إيــاكم وأن يكــون حظكم من القرآن إقامة حروفه.. فإن من لم يكن متصفا بأخلاق القــرآن، إذا قــرأ القــرآن نــاداه اللــه تعــالى: مالــك ولكلامي وأنت معـرض عـني، دع عنـك كلامي، إن لم تتب إلي)

قال ذلك، ثم التفت لتلميذه الذي سأله، وقال: هـل تعلم ما هو مثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره؟

قال التلميذ: وما مثاله؟

قال الشيخ: مثلـه مثـل من يكـرر كتـاب الملـك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكتـه وهـو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه.

وقد أشـار القـرآن الكـريم إلى ذلـك في قولـه عـز وجل: { فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِـهِ ثَمَنًـا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } [آل عمران: 187]

وأشار إلى حال المؤمنين عند قراءته، فقال: { إِنَّمَا

1) ابن أبي حاتم في تفسيره ج:6 ص:2017.

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الأنفال: 2]

قال لي بعض زملائي أثناء التحصيل: قرأت القرآن على شيخ لي، ثم رجعت لأقرأ ثانيا فانتهرني، وقال: جعلت القرآن علي عملا، اذهب فاقرأ على الله عز وجل، فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك(1).

قال التلميذ: اسمح لنا سيدنا أن نذكر لك ما يثيره فينا تلاميذ شيخ العبارة من الإشكالات.

قال الشيخ: اذكر ما بدا لك.. فمتى حجرت عليكم أن تسألوني؟

قال التلميذ: لقد ذكروا لنا أن الله أكرم وأعدل من أن يخص أحدا دون أحد بفهم كتابه.. فالكتاب للناس جميعا.. وذلك لا تقوم به إلا العبارة.

قال الشيخ: صدقوا في هذا، فالله أكرم من أن يحرم خلقه.. ولكنه غني كريم، فلا يعطي عطاءه لمن رغب عنه، ألم تسمع قوله تعالى: { كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } [الإسراء: 20].. فكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير.. وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد، فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب(2).

لقد سألت شيخي عن معنى الطهارة التي تبيح

---

1) إحياء علوم الدين (ج1/ 286).

2) إحياء علوم الدين (ج1/ 281).

مس المصحف، فقال: (طهارة أهل المحبة الفكرة والنظرة، وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة بين عبادة ظاهرة كصلاة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم.. وبين عبادة خفية كخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضا وتسليم ورحمة وشفقة وغير ذلك مما لا يظهر للعيان.. وأما طهارة أهل الباطن، فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكون، أو الغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق..)(1)

قال الشيخ ذلك، ثم التفت لتلميذ آخر، وقال: وأنت.. أظن أنك لديك سؤالا.. وأنت تستحي من ذكره.

قال التلميذ: أجل..

قال الشيخ: اذكر سؤالك يا بني.. فأنت تعلم أن الحيي محروم من الاستفادة.. مثله مثل المستكبر تماما.

قال التلميذ: هم يعترضون على ما ذكرته لنا البارحة عند قوله تعالى: { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } [الإسراء: 80].. لقد ذكرنا لهم ما قلته.. فذكروا أنك مخطئ فيها، والصحيح أن هذه الآية نزلت في فتح مكة، وأن اللّه تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقول هذا الدعاء عند دخولها حال فتحها، ومعناه: رب أدخلني مكة مدخل صدق أي: إدخال صدق، بأن يكون دخولي بك واعتمادي عليك ناصرا لدينك بحولك وقوتك، وأخرجني من مكة مهاجرا إلى جهاد عدوك مخرج صدق: أي: إخراج صدق، بأن أكون منصورا بك، معصوما بحفظك ورعايتك، واجعل لي من لدنك سلطانا: أي: برهانا دامغا لكل باطل نصيرا ينصرني على من عاداني.

1) إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 70 بتصرف.

قال الشيخ: وهل أنكرت أنا هذا التفسير؟

قال التلميذ: لا.. ولكنك ذكرت لنا معه تفسيرا آخر استغربوه.. بل قالوا فيك كلاما شديدا بسببه.

قال الشيخ: لعلكم أخطأتم يا بني في النقل عني.. فهل تذكر لي ما قلتم لهم بالضبط؟

قال التلميذ: محال أن نخطئ في ذلك يا شيخنا.. نحن نسجل كل كلمة تقولها.. سأعيد لك ما ذكرته لنا.

فتح دفتره، ثم راح يقرأ: (هذه الآية الكريمة تدل على أن دخول العارفين في الأشياء كلها يكون باللّه، وخروجهم منها يكون باللّه، وكأن الله يخاطبنا من خلالها بقوله: قل أيها العارف: رب أدخلني في الأشياء حقوقا كانت أو حظوظا مدخل صدق أي: إدخال صدق، بأن يكون ذلك الإدخال بك، معتمدا فيه على حولك وقوتك متبرئا من حولي وقوتي ومن شهود نفسي، وأخرجني منها مخرج صدق أي: إخراج صدق، بأن أكون مأذونا بإذن خاص، مصحوبا بالخشية وسر الإخلاص، ليكون نظري إلى حولك وقوتك إذا أدخلتني في الأشياء وانقيادي إليك إذا أخرجتني منها.. واجعل لي من لدنك أي: من مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب سلطانا أي: برهانا قويّا، وليس ذلك إلا وارد قوى من حضرة قهار لا يصادمه شيء إلا دمغه فيحق الحق ويزهق الباطل، ويكون ذلك السلطان ينصرني على الغيبة عن الحس، وعن شهود السوى حتى نبعد عنهما برؤية مولاهما ولا ينصر عليّ الوهم والحس وشهود الغيرية)(1)

قال الشيخ: نعم.. قلت لكم هذا.. وهو واضح، وليس فيه أي شيء منكر لا من الشريعة، ولا من

---

1) إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 517.

العقل..

قال التلميذ: ولكنهم يذكرون أن هذا تحريف للقرآن الكريم.. وأننا لا يصح أن نخرج بالآية عما قال المفسرون.

قال الشيخ: صدقوا يا بني في ذلك.. ولا تجادلوهم فيه.. هم تحدثوا عن مرتبتهم الوجودية.. أوعيتهم لا تقبل غير ذلك..

أذكر أني في شبابي الباكر أرسلت لشيخي رسالة أذكر له فيها ما يطرحه المعترضون عليه، فرد علي برسالة قال فيها: (اعلم – أيها الولد المحب- أن من العلوم القرآنية ما هو خاص بالخاصة، ولا يمكن للعامة أن تفهمه أو تتعاطاه، وقد ورد في الأثر: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا أظهروه أنكرته أهل الغرة بالله) (1).. وقد ورد في وصية الإمام علي لتلميذه الصالح كميل: (يا كُميل، إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة؛ عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباعُ كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، فاحذر أن تكون منهم يا كميل..)

وقال له شاكيا: (آه لو وجدت لهذا العلم حملة لا أجد إلا لقناً غير مأمون، يستعمل آلة الدين للدنيا، ويستظهر بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق، ولا بصيرة له في أحناته، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شُبهة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أو منهوكا باللذة سلس القياد

1) قال العراقي في تخريجه: (رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف) (انظر: أبو الفضل العراقي، المغني عن حمل الأسفار، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية الرياض، 1415هـ - 1995م، (ج1/ 23)

للشهوة، أو مغرماً بـالجمع والادخـار، ليسـا من رعـاة الدين في شيء، أقـربُ شـبهاً بهمـا الأنعـامُ السـائمة كذلك يموت العلم بموت حامليه مستترا..)

العبارة:

بعـد أن امتلأت بمشـاعر عظيمـة في مجلس شـيخ العبـارة، وبعـد أن سـال من دمـوعي مـا لم أسـتطع إيقافـه.. وبعـد تلـك الحسـرة الـتي شـعرت بهـا على تقصـيري في حـق ربي.. رحت لجهلي وغبـائي أبحث عن شيخ العبارة الذي كانوا يتحدثون عنه كل حين.

فسـألت عنـه، فـدلني بعضـهم على قصـر مهيب.. فتعجبت أن يكون لشيخ العبارة مثل تلـك المدرسـة.. بينما مدرسة شيخ الإشارة لا تعدو أن تكون كوخـا من الأكـواخ، أو مـنزلا بسـيطا لا يزيـد عن الـبيوت الـتي تجاورها شيئا.

وعنـــدما دخلت المدرســـة زاد عجـــبي من كـــثرة تلاميذها.. وكثرة المتاع المتوفر فيها..

كـــان التلاميـــذ في انتظـــار الشـــيخ على أحـــر من الجمر.. وكان بيد كل منهم دفتر وقلم..

دخل الشيخ، وكان ضخم الجثم، حسن البزة، طويل القامة، عريض الهامة، يملأ السمع والبصر..

بدأ القارئ بإشارة من الشيخ يقرأ القرآن الكـريم.. وكان العجب أن يقرأ سورة العصر..

بعد قراءتها أخذ الشيخ في تفسيرها، وكان جهـوري الصوت، فصيح اللسان، يحـرص على أن يقيم القلقـة والغنة والمدود ونحوها.. ويحرص على ألا يقـع في أي لحن.. سأحكي لكم نموذجا مما كان يقولــه، ويمكنكم أن تقيسوا عليه الباقي..

قال الشيخ: نبدأ باللغة.. (الْعَصْرِ) كما في القاموس: الدهر.. والجمع أعصار وعصور وأعصر وعصر.. والعصر اليوم والليلة والعشي إلى احمرار الشمس.. والغداة والحبس والرهط والعشيرة والمطر من المعصرات والمنع والعطية، عصره يعصره وبالتحريك الملجأ والمنجاة كالعصر بالضم(1).

قال بعض التلاميذ: ماذا قال السلف الصالح في معناه؟

قال الشيخ: لقد ورد عن السلف فيه ثلاثة أقوال(2):

أحدها: أنه الدَّهر، قاله ابن عباس، وزيد بن أسلم، والفراء، وابن قتيبة. وإنما أقسم بالدهر لأن فيه عبرة للناظر من مرور الليل والنهار على تقدير لا ينخرم.

والثاني: أنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، قاله الحسن وقتادة.

والثالث: صلاة العصر، قاله مقاتل.

قال تلميذ آخر: هلا وضحت لنا كيف نقرؤها غضة طريقة.

قال الشيخ: في ذلك وجوه:: منها ما قرأ به سلام أبو المنذر، حيث قرأ (والعصر) بكسر الصاد والراء.. وهذا إنما يكون في نقل الحركة عند الوقف كقولك مررت ببكر تعلو كسرة الراء إلى الكاف عند الوقف.. وكذلك يفعلون في المرفوع ولا ينقلون في المنصوب إلا في ضرورة شاعر، وقد قال سيبويه: الوقف على الاسم بستة أشياء: بالإشمام والإشباع، وروم الحركة، ونقل الحركة، والتشديد، والإسكان.. ونقول الإشمام ضم الشفتين بعد الإسكان في المرفوع والمضموم

1) إعراب القرآن وبيانه (10/ 571).

2) زاد المسير في علم التفسير (4/ 487).

للإشارة إلى الحركـة من صـوت والغـرض بـه الفـرق الساكن والمسـكن في الوقـف، والـروم هـو أن تـأتي بالحركة مع إضعاف صـوتها والغـرض بـه هـو الغـرض بالإشـمام إلا أنــه أتم في البيــان من الإشــمام فإنــه يدركه الأعمى والبصير والإشمام لا يدركه إلا البصير.

قـال تلميـذ آخـر: شـكرا لنـا شـيخنا.. فلنـذهب إلى الكلمة الثانية (الْإِنْسانَ)

قال الشيخ: (الْإِنْسانَ) لفظ يقع للـذكر والأنـثى من بني آدم وربمـا أنّثت العـرب فقـالوا إنسـان وإنسـانة، كما قال الشعر:

إنسانة تسقيك من إنسانها... خمرا حلالا مقلتاها عنبه

وال فيه لاستغراق الجنس فيشمل المؤمن والكافر بدليل الاستثناء.

قال تلميذ آخر: وكلمة (خُسْرٍ).. ما تعني؟

قـال الشـيخ: الخسـر والخسـران سـواء، قـال في المصباح: (خسـر في تجارتـه خسـارة بـالفتح وخسـرا وخسرانا ويتعدى بالهمزة فيقال أخسرته فيها وخسـر خسرا وخسرانا أيضا: هلك)

بقي الشيخ هكـذا يشـرح السـورة كلمـة كلمـة.. ثم أعربها، وأطال في وجوه إعرابها.. ثم تكلم عن البيان والمعـاني والبـديع.. ثم انتهى من درسـه، وطلب من تلاميذه أن يسألوه عما لم يفهموه.

قال أحدهم: شـكرا لـك شـيخنا على هـذا التفسـير العظيم الذي لم نقرأ مثله.. وأنا أريد أن أسألك سؤالا حول شيخ الإشارة..

غضب الشيخ، وقـال: مـا بـه.. ألا يـزال ذلـك الأمي

الملحد يتجرأ على تفسير القرآن.. ألم أكن قـد نهيتـه عن ذلك.. ألم تأت الشرطة بعد لتغلق عليه السرداب الذي ينشر فيه الباطنية وكل أنواع الضلال؟

قال التلميذ: بلى.. لم تأت الشرطة بعد.. وقد كنت في الصـباح عنـده.. وقـد رأيتـه يفسـر هـذه السـورة بخلاف ما فسرتها.. وقد ملأ تلاميذه رعبـا.. بـل صـور لهم، وكـأنهم هم الخاسـرون.. لا الكفـار والمبتدعـة والزنادقة.

قال الشيخ، وهو يضحك: لقد صدق في هـذا.. فمن تبعه لا شك في خسارته..

ضـحكوا جميعـا، لكن أحـد التلاميـذ قـال: ولكن السورة فيها هذا التهديد المخيف.

قـال الشـيخ: هي تهديـد للمبتدعـة المنحـرفين الضـالين.. أمـا أصـحاب الفرقـة الناجيـة، فلا خـوف عليهم ولا هم يحزنون.. لقد وردت الآثـار الكثـيرة عن سـلفنا الصـالح تضـمن النجـاة لكـل من تمسـك بمـا نتمسك به من السنة وهدي السلف الصالح..

ثم أخذ يروي لهم ما ورد عن البربهـاري وابن بطـة وابن خزيمـة وابن تيميـة وغـيرهم من الضـمانات مـا ملأهم بشرا وسعادة، وأكد لهم أنهم لا محالة داخلـون الجنة، وأن من عداهم لا محالة داخلون النار.

بعد انتهى رفع تلميذ آخر يده، وقال: هـل علمت يـا شيخنا بأن شيخ الإشارة قد عاد لما حذرته منه، فذكر أنه يمكن للإنسان أن يسمع القرآن من اللـه مباشـرة من غير حاجة لملك أو غيره.

قال الشيخ[1]: هذه جراءة لم يتح لأحد ـ فيما مضى

---

1) الكلام الوارد هنا هـو للشـيخ أحمـد حمـاني في كتابه، صـراع بين السنة والبدعة،(ج1/272) في نقد الشيخ ابن عليوة الذي اعتبرناه شيخ الإشارة.. وقد أشرنا بقصر شيخ العبارة إلى المجلس الإسـلامي الأعلى

ـ أن يعلن بمثلها في قوم من المسلمين فـتروى عنـه وتروج، إنها تؤدى بقائلها والمصـدق بـه إلى الاسـتغناء عن رسالة محمد ﷺ إذا كـان (المـؤمن) يأخـذ القـرآن من الامـــام المـــبين.. أو يأخـــذ مباشـــرة من أرحم الراحمين فإنه ليس من أمـة محمـد، لأن أمـة محمـد أخذت القرآن منه ﷺ، أخذه الصحابة مباشرة وكتبـوه ورووه، وبلغ إلى من لم يكن حاضرا نزوله ومن بعـده برواية بلغت حد التواتر في كل كلمة منه وكل حرف، وهو ﷺ لم يأخذ القرآن مباشرة من اللوح المحفـوظ، ولا تلقاه مباشرة من الله، وإنما تلقاه من لـدن حكيم عليم بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السـلام، كمـا أنبأنـا علام الغيـوب، { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيـلُ رَبِّ الْعَـالَمِينَ } [الشعراء: 192]..

إن هـذه الـدعوى خطـيرة جـدا لأنهـا تـؤدي إلى أن الـوحي لم ينقطـع بختم الرسـالة، فمن يقـرأ اللـوح المحفوظ، ومن يتلقى عن الله فهو يوحى إليه: { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَـهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًـا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَـابٍ أَوْ يُرْسِـلَ رَسُـولًا فَيُـوحِيَ بِإِذْنِـهِ مَـا يَشَـاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } [الشـورى: 51]، ونحن المسـلمين نعتقـد أن الوحي قد انتهى بختم الرسالة)

قال ذلك، ثم ختم الجلسـة، وهـو يقـول: انتظـروا.. في هذا المسـاء سـوف نقضـي على هـذه الفتنـة من جذورها.

قبل آذان المغرب بقليل، شـعرت بأشـواق تجـذبني إلى شيخ الإشارة، لأزيح عن قلبي ما علق به من رين بسبب شيخ العبارة، فذهبت، لكنني فوجئت بها مغلقـة بالشمع الأحمر.. سألت المارة عن الشيخ، فـأخبروني أنه اقتيد إلى السجن.. وأن شيخ العبارة انتصر أخـيرا على شيخ الإشارة..

الذي كان يرأسه الشيخ حماني.

وفي ذلـك المسـاء أيضـا سـمعت أن شـيخ العبـارة رقي إلى مناصـب مهمـة في الدولـة، بحيث صـار هـو الممثـل الأعلى للإسـلام، وهـو المفـتي الوحيـد في الدولة، والمفسر الوحيد للقرآن.

العبرة.. والأسطورة

تشكل القصص جزءا مهما من القـرآن الكـريم قـد يصـــل إلى النصـــف، وقـــد يتجـــاوزه.. وهنـــا تكمن الخطورة..

فالـذي يتقن التعامـل مـع هـذا النصـف، يكـون قـد تعامل حقيقة مع القرآن الإلهي المقـدس.. وإن أسـاء التعامل معه يكون قد ضـيع نصـف القـرآن، أو تعامـل مـع قـرآن آخـر نسـجه بهـواه أو ثقافتـه أو بيئتـه أو طائفته ومذهبه.. وهو يقول حينذاك شعر أو لم يشعر بتحريف القـرآن وتبديلـه وتغيـيره، ويكـون من الـذين بـدلوا الكلم عن مواضـعه، وتكـون يـده من الأيـادي الآثمة التي لم تتطهر لتلمس الحقائق القرآنية.

لا تستعجلوا في الإنكار علي.. فهذا الكلام ليس من نسج الخيال، وليس نظرة موغلة في التشاؤم، بل هو الواقع السائد في تراثنا وتاريخنا..

وأنا لا أقوله لأحكم على أحد من الناس بـأي حكم.. فالله هو الديان وهو الـذي يحكم بين عبـاده.. ولكـني أقولـه لأنـه الواقـع أولا.. ونحن مطـالبون بـأن نكـون صادقين في نظرتنا للواقع، وفي حكمنا عليه.. وأقوله ثانيـا، لأنـه لا يمكن أن نصـحح واقعنـا، ونحن نفخـر بأنفسنا وتراثنا وأمجادنا، ولو كان على حساب تضـييع نصف القرآن، أو تحريفه وتبديله.

سأقص عليكم قصة قد تبسـط هـذه الحقيقـة الـتي أومن بهـا، وهي رمزيـة كسـائر القصـص، فمن فـك الرمـز وصـل إلى الحقيقـة، ومن انشـغل بـالرمز تـاه عنهـا، مثلمـا نتيـه تمامـا عن الرمـوز المودعـة في القصص القرآني.

لقد قدر لي في ذلك اليوم أن أمـر على مدرسـتين وشيخين مختلفتين تمامـا إلى درجـة التنـاقض مـع أن

الكتاب الذي يحاولان فهمه واحد.

أما الشيخ الأول الـذي مـررت عليـه بجنب تلاميـذه في مدرسـته المتواضـعة، فهـو شـيخ العـبرة.. كـان المحل الذي يقيم فيه مع تلاميذه ضيقا بسيطا.. وكان عـدد تلاميـذه قليلا جـدا.. ربمـا يمثلـون تلـك الطائفـة المحـدودة الـتي فهمت مـراد اللـه من قصصـه.. فاعتبرت الله مربيا بالقصص، وهاديا بها، وداعيا عباده إلى سبيله من خلاله.

تلك الطائفة التي وعت قوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْـرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَـابِ مَـا كَـانَ حَـدِيثاً يُفْتَـرَى وَلَــكِن تَصْـدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْـهِ وَتَفْصِـيلَ كُـلَّ شَـيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (يوسف: 111)

تلك الطائفة هم أولوا الألباب الذي يهتمـون بـاللب، لا بالقشور، وبالأعماق لا بالسطحيات..

تلك الطائفة هي الوحيدة التي عرفت أن الله بذاته العلية عندما يقص علينا أحسن القصص: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَـنَ الْقَصَـصِ } (يوسـف: 3) ليس حكواتيـا ولا مؤرخا.. وإنما هو اللـه رب العـالمين.. الـذي يعلم نفوس عباده، ويعلم كيف يربيها.

أمـا الشـيخ الثـاني، فقـد كـانت مدرسـته واسـعة فسيحة، وكان عدد تلاميذه كثيرا، وكان الثراء والترف باد على الجميع: الشيخ وتلاميذه..

وهم يمثلون تلـك الطائفـة الكبـيرة من الأمـة الـتي انشغلت بالقصة عن العـبرة.. وانشـغلت بالتـاريخ عن الواقع.. وانشغلت بهوى النفس عن مراد الرب..

ولذلك لم ترفعها القصص.. ولم تعـرج بهـا.. بـل لم تهذب بها نفوسها.. بل إن الشيطان تسـرب إليهـا من خلالها ليبثها وحيـه، ويلقنهـا مـراده.. ويتخـذ من آيـات

الله وسيلة لذلك، كما صور الله تعالى ذلك بدقة في قوله: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [الحج: 52، 53]

وقد كان للشيطان نصيب وافر في تفاسير القرآن، وخاصة في الجانب القصصي منها، وكان له دور في تحريف مسار القرآن الكريم بتلك التفاسير ليتحول من كتاب سنن وقوانين وحقائق وعبر إلى كتاب خرافة وأسطورة وشعوذة.

سأحكي لكم حديث شيخ العبرة مع تلاميذه.. وسأحكي لكم بعدها حديث شيخ الأسطورة مع تلاميذه، ولكم أن تحددوا موقفكم الذي يجعلكم تعيشون القصص، أم تتسلون بها.

وقد كان النموذج الذي شهدته في كلا المدرستين واحد، وهو قصة نبي الله سليمان عليه السلام.. فهلم لنراه بين العبرة والأسطورة.. ونسأل أنفسنا بعد ذلك: أين هو سليمان الحقيقي الذي قص علينا القرآن قصته: هل هو سليمان العبرة، أم سليمان الأسطورة؟

العبرة:

جلست مع التلاميذ المتواضعين في المدرسة المتواضعة مع الشيخ المتواضع.. وبدأ الحديث..

طلب الشيخ من القارئ أن يقرأ ما ورد في القرآن الكريم حول سليمان عليه السلام.. فقرأ القارئ بصوته الجميل الهادئ من مواضع مختلفة تحكي جميعا قصة سليمان عليه السلام.

بعـد أن انتهي القـارئ، التفت الشـيخ إلى تلاميـذه، وقـال: أنتم تعلمـون طريقـتي في التعامـل معكم.. فنحن جميعا تلاميذ القرآن الكريم.. وليس فينا أسـتاذ ولا تلميـذ.. ولـذلك سـلوني مـا بـدا لكم، ودعـوني أسـألكم.. فبـالحوار نسـتطيع أن نفهم الحقـائق.. وبالحوار نستطيع أن نمارس التفكير الجماعي الـذي دعا إليه قوله تعالى: ﴿ قُـلْ إِنَّمَـا أَعِظُكُمْ بِوَاحِـدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: 46]

وتذكروا جيدا أننا أمام كتاب ﴿ لَا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلَا مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ ﴾ [فصلت: 42]، فكل كلمة فيه حقيقـة عظيمـة.. وكـل آية فيه بحر من بحار الحكمـة.. ولكم أن تسـبحوا في هـذا البحـر.. ولكم أن تغـترفوا منـه.. ولا تحقـروا مـا يلهمكم الله أثنـاء تـدبركم لكتابـه، فاللـه ﴿ هُـوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: 26]

ولا تحذروا أن تقولوا في القرآن ما لم يقله سلفكم أو خلفكم.. فـالقرآن هـو خطـاب اللـه لكم.. وبقـدر تقـواكم تنـالون من حكمتـه، وتفهمـون مـراد اللـه.. وترقى حيـاتكم ودرجتكم عنـد اللـه بـذلك.. كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 282]

رفع أحد التلاميذ يده بأدب، وقـال[1]: يـا شـيخ.. في نفسي شيء من طلب سليمان عليه السلام من ربـه سـبحانه وتعـالى أن يعطيـه ملكـا لم يعطـه أحـدا من عبـاده، كمـا نص على ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ قَـالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًـا لَا يَنْبَغِي لِأَحَـدٍ مِنْ بَعْـدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: 35]

قال الشيخ: قـل، فلا حـرج على المتعلم أن يعـرض

---

1) بعض العـبر المـذكوره هنـا نقلتهـا بتصـرف من كتـابي (مفـاتيح المدائن)

شبهته على معلمه، ألم تعلم أن الناس سألوا رسـول الله ﷺ عن الوسوسة التي يجدها أحدهم، لأن يسـقط عن الثريـا أحب إليـه أن يتكلم بهـا، فقـال ﷺ:(ذاك صريح الإيمان، إن الشيطان يأتي العبد فيما دون ذلك فإن عصم منه وقع فيما هنالك)[1]

قال التلميذ: لقد قلت في نفسي: لقد عهدنا الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسـلام ــ زاهـدين في متـاع الـدنيا راغبين في الله مكتفين باللـه، فكيـف طلب سـليمان ﷷ هذا الطلب الغريب؟

قال الشيخ: أجبني يا بني.. كيف تـرى سـليمان ﷷ في القرآن الكريم؟

قال التلميذ: لا أراه إلا خيرا منيبا، بل لقد أثنى اللـه عليـه بكونـه منيبـا رجاعـا إلى اللـه، فقـال:{ وَوَهَبْنَـا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } (صّ:30)، وقـال: { وَلَقَدْ فَتَنَّا سُـلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَـا عَلَى كُرْسِـيِّهِ جَسَـداً ثُمَّ أَنَابَ } (صّ:34)

قال الشيخ: فهل شغله تدبير ملكه العظيم الـذي لا نظير له عن الله؟

قـال التلميـذ: لا.. بـل أراه يـذكر اللـه كـل حين، ويعرف الفضل لله كل حين، فعنـدما مـر على النملـة وسـمع كلامهـا قـال:{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَـكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِـدَيَّ وَأَنْ أَعْمَـلَ صَـالِحاً تَرْضَـاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِـكَ فِي عِبَـادِكَ الصَّـالِحِينَ } (النمل: من الآية19)

قال الشيخ: وهل ظهرت هذه الإنابة في علاقته مـع غيره؟

قال التلميذ: أجل، فقد كتب لملكة سبأ يقول لهـا:{

1)) رواه النسائي.

إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } (النمل:31)

وقال مخاطبا رعيته:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } (النمل: من الآية16)، فقد أرجع الفضل إلى الله في تعليمه منطق الطير، أو في إتيانه من كل شيء.

قال الشيخ: فإن سليمان ﵇ طلب ذلك الملك، وبتلك الصورة التي لا ينازعه فيها أحد ليكون حجة على من شغله ملكه عن الله، وكأن سليمان ﵇ يقول لربه:(يارب هب لي من الملك ما تشاء.. بل هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يحصل عليه.. فإن هذا الملك مهما كان عظيما.. وذلك الفضل مهما كان وفيرا لن يحجباني عنك، ولن يبعدا قلبي عن الرغبة فيك.. فإني لا أرى الأشياء مهما كثرت إلا منك.. ولا أرى نفسي إلا بك.. فكيف أحجب بهداياك الواصلة إلي.. أم كيف أنشغل بفضلك عنك؟)

قال التلميذ: فاستجاب الله ليبلوه؟

قال الشيخ: لا، بل استجاب له، ليبلوكم.

قلت: كيف؟

قال الشيخ: لقد علم الله صدقه وصدق يقينه، فجعله حجة على كل من انشغل بفضل الله عن الله، أو انشغل بالرغبة في الأشياء عن الرغبة في مشيئ الأشياء.. وقد جعله الله تعالى بالإضافة إلى ذلك مقوما لمن أساءوا فهم الزهد، فتصوروا الأرزاق حجبا عن الله، والفضل الإلهي جنودا لله تبعد عن الله.

قال التلميذ: نعم، هذا صحيح، ولعله لأجل هذا ذكر الله تعالى ما أظهر سليمان ﵇ لملكة سبأ من مظاهر الملك الذي أعطاه الله له، فلم يكن غرضه

الفخر عليها، وإنما كان غرضه تعريفها بالله، لأنها انشغلت بالعرش العظيم(1) الذي كان لها عن الله، فلذلك كان أول ما لاقاها به سليمان ﷺ هو عرشها الذي حجبها عن الله، وعن التسليم له، قال تعالى:{ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ } (النمل:42)

فلما قالت ذلك، وفي غمرة انبهارها بما رأت أخبرها سليمان ﷺ بأنه مع هذا الملك كان مسلما لله، فلم يحجب به عن الله، فقال تعالى على لسانه(2):{ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

فلما رأى سليمان ﷺ حاجتها إلى المزيد من الأدلة، أحضرها إلى الصرح الممرد من القوارير، وقد كان من الجمال بحيث لا يساوي عرشها الذي شغلها عن الله شيئا بجانبه، وحينذاك لم تملك إلا أن تسلم لله، قال تعالى:{ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (النمل:44)

قال الشيخ: بل في القرآن الكريم ما يدل على هذا المعنى، فقد أوتيت ملكة سبأ من الذكاء ما استطاعت أن تميز به الملوك من المؤمنين، فقد أرسلت بهدية قيمة لسليمان ﷺ لتختبره موقفه من

1(1) وقد ذكر القرآن الكريم ذلك، فقال على لسان الهدهد:﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (النمل: 23)

2(1) هذا هو الصحيح، وهو ما قاله مجاهد وسعيد بن جبير، وقد اختاره ابن جرير وابن كثير، لا من قول ملكة سبأ، بدليل أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما قال:(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:44)

المال، قال تعالى على لسانها:{ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } (النمل:35)

لكن سليمان ﷺ نظر إلى ما أعطاه الله من الإيمان والفضل فوجده أعظم بكثير من أن ينحجب بهديتهم، فقال:{ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } (النمل:36)

قال التلميذ: لقد فهمت يا معلم سر طلب سليمان ﷺ، ولكن لماذا ورد في القرآن الكريم ذكر ملكة سبأ بالذات، وذكر هذا الموقف من سليمان ﷺ معها؟

قال الشيخ: لقد أراد الله من هذا النموذج أن يبين لنا كيفية دعوة من بهرتهم الدنيا وشغلتهم عن الله.

قال التلميذ: لم أفهم.

قال الشيخ: إن ملكة سبأ بعرشها، وقومها بتعظيمهم لها انشغلوا عن الله، فجعل الله فيما أعطى المؤمنين من أسباب الفضل التي لم تشغلهم عن الله ما يرغبهم في الإيمان بالله.

قال التلميذ: ولكن القرآن الكريم ذكر إسلام ملكة سبأ وحدها.

قال الشيخ: والقرآن الكريم ذكر التبعية المطلقة لقومها لها، كما قال تعالى على لسان مستشاريها:{ نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } (النمل: من الآية33)، وهو ما يدل على أنهم اتبعوها على الإيمان.

قال التلميذ: وهل رجعت إليهم حتى يتبعوها؟

قال الشيخ: ومن قال: إنها لم ترجع إليهم.. إن القرآن الكريم أخبر أن غاية سليمان ﷺ من إرساله

لها هو حثها على الإسلام لا سلب ملكها منها، كما قال تعالى على لسانه:{ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } (النمل:31)

قال التلميذ: ولكن المفسرين أخبروا أنه تزوجها.

قال الشيخ: وهل حضروا حفل زواجها!؟.. ما أولعكم بما لا يفيدكم.

قال التلميذ: ولكنهم رووا في ذلك أخبارا، فقد رووا أن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان ﷺ وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها، وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة.

ثم إن سليمان ﷺ لما أراد إزالته ـ حين عزم على تزوجها ـ سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى، فامتنعت من ذلك، فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام، فكان أول من دخل الحمام فلما وجد مسه قال:(أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه)

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليها، وكان يزورها في كل شهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن: غمدان وسالحين وبيتون.

قال الشيخ: طهروا كتب تفسيركم من هذا الرفث، فالحقائق الجميلة الطاهرة للقرآن الكريم لا ينجسها إلا هذا اللغو الذي تملؤون به أسفاركم، وتضيعون به أوقاتكم، وتنشغلون به عن ربكم.

قال التلميذ: ألا يمكن، يا معلم، أن نستفيد من

موقف سليمان ﷺ مع ملكة سبأ فنجعله أسلوبا من أساليب الدعوة لله في عصرنا؟

قال الشيخ: بل لم يذكره القرآن الكريم إلا لتستخدموه، فلو أن رجالا من هذه الأمة رفعوا هممهم وسخروا السنن التي وضعها الله لهم، وامتطوا صهوة الزمان، فأخرجوا الأمة من غياهب التخلف والمعاناة، وأوصلوها إلى التقدم والتطور الذي لا يحجب عن الله لتحقق بذلك نصر الله الذي يدخل الناس بسببه في دين الله أفواجا.

قال التلميذ: ولكن النصر ـ كما أتصوره ـ نصر جيوش.

قال الشيخ: ذلك نصر المصارعين، أما المسالمون فهم الذين ينتصرن بأقلامهم ودفاترهم، وفؤوسهم ومعاولهم.

رفع تلميذ آخر يده، وقال: لدي سؤال لا يزال يثار في ذهني.

قال الشيخ: قل ما بدا لك.. فمتى حجرت عليكم السؤال؟

قال التلميذ: أنا أتعجب من طلب سليمان ﷺ من ملئه أن يأتيه بعرشها.. فقد كان له من القوى ما ليس لهم.. فلم طلب منهم ذلك، فقال: { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } (النمل: 38)

قال الشيخ: فما الذي أجابه به العفريت؟

قال التلميذ: قال له ما نص عليه القرآن الكريم من قوله تعالى:{ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } (النمل:39)

قال الشيخ: فهل كان ما طرحه العفريت مقبولا من جهة سرعة إحضاره؟

قال التلميذ: أجل، فلا أظن أن هناك وسيلة معاصرة تستطيع إحضارالعرش بهذه السرعة.

قال الشيخ: وهل رضي سليمان ﷺ بما طرحه العفريت؟

قال التلميذ: لا، بدليل أنه لم يكتف به، بل سمع للذي عنده علم من الكتاب، فقد ضمن له سرعة أكبر.

قال الشيخ: إذن سليمان ﷺ لم يرض بما اقترح العفريت، بل ظل يتطلع إلى سرعة أعظم، إلى أن حصل عليها.

قال التلميذ: أجل هذا واضح من القصة.

قال الشيخ: يمكنك أن تفهم من هذا بحسب وعائك.. وبحسب القبلة التي يتوجه إليها عقلك وقلبك.

قال التلميذ: لم أفهم.

قال الشيخ: القرآن الكريم يخاطب كل إنسان بحسب الوجهة التي توجه لها.. فإن كان عابدا فهم من الآية السباق الجاري بين العابدين،كما قال تعالى: { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين: 26].. وإن كان عالما فهم منها السباق القائم بين العلماء.. وهكذا تشمل الآية كل أنواع السباق حتى السباق القائم بين الدول.. فأنتم تعلمون أن هناك دولا متطورة تصنف ضمن العالم الأول.. ودولا متخلفة عن ركب غيرها من الأمم.. ومن العار على الأمة التي أوتيت الكتاب أن تكون آخر الأمم وأكثرها تخلفا.

قال تلميذ آخر: فحدثنا يا شيخنا عن سر قوله تعالى:{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ } (سبأ: 12)

قال الشيخ: فما فهمت منها.. وما الذي استفدته من المفسرين منها؟

قال التلميذ: يخبر الله تعالى عن النعم التي وهبها سليمان عليه السلام، ومنها تسخير الريح له تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر، كما قال الحسن البصري: (كان يغدو على بساطه من دمشق، فينزل بإصطخر يتغدى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع)

قال الشيخ: فمن أخبر الحسن بذلك؟

قال التلميذ: ربما يكون سمعها من الصحابة الذين سمعوها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..

قال الشيخ: فلم لم تقل: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي ذكر ذلك؟

قال التلميذ: لأنه لا دليل على ذلك، فقد يكون سمعها من اليهود، أو من غيرهم.

قال الشيخ: فما قيمة هذا العلم الذي لا تعرف مصدره، ولا صدقه.. وحتى لو عرفته فما الذي يفيدك أين يتغدى وأين يتعشى.. وهل ترى سليمان عليه السلام كان من المترفين الذين يستغلون نعم الله عليهم لتغذية مآرب الترف فيهم.. ألا ترى فيما ذكرته لي إهانة لنبي الله الأواب التواب الزاهد؟

قال التلميذ: من هذه الجهة صدقت.. ولكن لم ذكر الله ذلك؟

قال الشيخ: الآية تشير الى أن الطريق مفتوح أمام البشر لقطع مثل هذه المسافة في الهواء..

قال التلميذ: كأنـك تقـول: إن هـذه الآيـة تحث على البحث عن القـدرات المخزنـة في الهـواء لاسـتغلالها في قطع المسافات.

قال الشيخ: لست أنا الذي أقـول هـذا، بـل إن اللـه تعالى يقول في معنى هـذه الآيـة الكريمـة:(إن عبـداً من عبـادي تـرك هـوى نفسـه، فحمّلتُـه فـوق متـون الهـواء، وأنت ايهـا الانسـان! ان نبـذت كسـل النفس وتركته، واستفدت جيداً من قوانين سنتي الجارية في الكون، يمكنك أيضاً أن تمتطي صهوة الهواء)[1]

قال تلميذ آخر: أخبرنا سيدنا عن سر سمع سليمان ﵇ للنملـة عنـدما قـالت:{ يَـا أَيُّهَـا النَّمْـلُ ادْخُلُـوا مَسَـــاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُـــلَيْمَانُ وَجُنُـــودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } (النمل: من الآية18)، فتبسـم ضـاحكا من قولها.. وعن سر ذكر القرآن الكريم لذلك؟

قال الشيخ: فما ترى أنت؟

قال التلميذ: تلك معجزة حصلت له.

قال الشـيخ: ألم تعلم بـأن معجـزات اللـه لا تخـرق سنن الله، فسنن الله لا يعتريها التبديل والتحريف!؟

قال التلميذ: أجل لقد علمتنا علم ذلك، ولكن كيــف استطاع سليمان ﵇ أن يسمع النمل، وكيف استطاع أن يعلم لغتها!؟

قال الشيخ: من صدق مع الله لم يحتقر أي شيء.. ومن لم يحتقـر أي شـيء اسـتفاد من كـل شـيء.. فالاحتقـار هـو الحجـاب الـذي يحـول بيننـا وبين فهم الأشياء أو الاستفادة منهـا.. ولـذلك قـال تعـالى: { إِنَّ

1) كلام لبديع الزمان النورسي.

اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة: 26]

ولهذا ضرب الله لنا المثل بالذباب.. كما قال تعالى: { يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } [الحج: 73]

فالعارف بالله يستفيد من الذباب ما لا يستفيده الغافل من الكون جميعا..

بقي التلاميذ والشيخ يتناولون كل جزئية وردت في قصة سليمان عليه السلام بالبحث والتحليل والنظر مدة من الزمن.. وقد شعرت حينها بأن تلك السورة تتسع في عيني لتشمل الحياة جميعا بمختلف جوانبها..

وشعرت وكأن سليمان عليه السلام عاد من جديد بصورته الحقيقية.. صورة الأواب التواب الشاكر.. جاء ليلقننا من خلال الكلمات القرآنية المقدسة كيف نعيش حياته، وكيف نتقمص شخصه الكريم.. ليتحقق بذلك فينا قوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام: 90]

الأسطورة:

سرت بتلك المشاعر الجميلة، وبصحبة روحية مع سليمان عليه السلام إلى المدرسة الثانية، وأنا أقول في نفسي: ليس على المرء أن يدرس من مدرسة واحدة.. فكلما تنوعت المدارس وتعددت كلما نضج المرء واتسع أفقه..

كنت أقول هذا من دون أن أدرك أن تلك المدرسة سوف تقوم بتخريب خطير لتلك الصورة الجملية التي رسمتها في نفسي مدرسة العبرة المتتلمذة على القرآن الكريم..

لم أكن حينها أعي سر قوله ﷺ لعمر عندما أراه صحيفة من التوراة، محذرا له من أن يخلط المنابع القرآنية الجميلة بتلك التحريفات الخطيرة التي تنسخ جمال المعاني القرآنية المقدسة بقذارة التحريفات البشرية المدنسة..

لقد قال له ﷺ حينها: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني)(1)

لكن للأسف قومنا لم ينظروا لغضب رسول الله ﷺ.. ولم ينظروا إلى قوله الواضح الذي لا يحتمل أي تأويل أو نسخ أو استدراك.. بل راحوا ينشرون أن رسول الله ﷺ أذن في الحديث عن بني إسرائيل بلا حرج.. وأصبح ذلك هو الأصل.. ونسخ الحديث السابق، ونسخ معه غضب رسول الله ﷺ لأن هؤلاء يعتقدون أن غضب رسول الله ﷺ غير معصوم.. وأنه يمكن أن يغضب لغير شيء كما يغضب سائر البشر.. ولم يعلموا أبدا أن غضب رسول الله هو غضب الله نفسه.. فرسول الله لا يغضب عن هوى كما لا ينطق عن هوى.

دعكم من أحاديثي فهي زفرة من زفرات غضبي على ذهابي إلى تلك المدرسة، وسماعي لمشايخها.. فقد بقيت آثار كلماتهم في نفسي زمنا طويلا.. ولم

1) رواه أحمد.

أستطع قلع تلك الصورة الأسطورية القبيحة التي صوروها لنبي الله سليمان عليه السلام إلا بعد جهد جهيد، والتجاء إلى الله أن يطهر قلبي من كل تحريف شيطاني لكتابه ولصورة نبيه..

سأحكي لكم.. واعذروني.. واحذروا أن يرتسم ما أنقله من صور إلى نفوسكم.. فإن خفتم عليها.. فاتركوا القراءة، ولا تكملوا باقي القصة.. فدينكم أهم من كل قصة.

عندما دخلت المدرسة الكبيرة ذات التلاميذ الكثيرين والكتب الكثيرة المتزاحمة أحسست في البداية ببعض الراحة التي نحس بها عندما نرى مكانا جميلا متسعا.. ومنيت نفسي بأن أنال علما كثيرا جديدا.

ودخل في أمنيتي شيء جديد، وهو الإجازة والشهادة.. فقد علق على باب المدرسة بيان كبير عليه أختام كثيرة.. تبشر المداومين على الحضور بنيل الإجازات والشهادات العليا التي تتيح لهم تبوؤ المناصب الرفيعة في تلك المدرسة وغيرها.

وهذا ما فسر لي بعد ذلك سر كثرة التلاميذ.. وسر حرصهم على الحضور.

جلست مجلسا من المجالس.. وكانت المفاجأة أن الدرس كان عن سليمان عليه السلام..

اعذروني أن أنقل لكم ما يقولون.. فبعض الناس لا يصدق بشيء إلا إذا رأيناه بعينه.. ولعل في قوله تعالى: { لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا } [النساء: 148] ما يكون لنا عذرا في ذكر ذلك.. وهو من باب تغيير المنكر لا من باب إشاعته..

قـال الشـيخ لتلاميـذه: سـنحاول اليـوم أن نرسـم صــورة علميــة دقيقــة لحيــاة ســليمان الشخصــية والاجتماعيـة والسياسـية من خلال مـا قصـه القـرآن الكريم علينا..

استبشـرت خـيرا لكلامـه هـذا، وحمـدت اللـه على نعمة حضوري للمدرسة..

بدأ الشيخ درسه بسؤال تلاميذه قائلا: أنتم تعلمـون طريقتي.. فأسألوني عن أي آية تتعلق بسليمان عليـه السلام، وسأنبئكم بخبرها.. فالحمـد للـه وفقـني اللـه بفضـله فقـرأت، بـل حفظت كـل مـا تـرون من كتب التفسير ابتداء من الطـبري وانتهـاء بمن تعلمـون من المفسرين المعاصرين، ولي فوق ذلك عشرين مجلدا في تفسير القرآن الكريم.. لم أترك فيه قولا قيل في أي آية إلا ذكرته.

استأذن تلميذ من تلاميذه، فأذن له، فقال: أجـل يـا شيخنا.. والحمد لله قد استفدنا منـك كثـيرا.. ونحن لا نتتلمذ عليك فقط.. بـل نتتلمـذ على تفسـيرك أيضـا.. وانطلاقا منه أريد أن أسألك عن تلك القصص الكثيرة التي ذكرتها.. فقد حصل لنفسي منها شيء.

قال الشيخ: سل مـا بـدا لـك.. فلا حـرج عليـك في ذلك.

قـال التلميـذ: لقـد رأيت أن الكثـير منهـا من روايـة كعب الأحبـار ووهب بن منبـه وغيرهمـا من اليهـود أو من تلاميـذ اليهـود.. ألا تـرى أن في ذلـك خلطـا بين المعاني القرآنية والمعاني اليهودية الدخيلة؟

قال الشيخ، وهـو يحـاول كظم غيظـه: لـو حضـرت الحصـص السـابقة لعلمت قيمـة هـؤلاء المفسـرين.. لـولاهم لكـانت القصـص القرآنيـة غامضـة مبهمـة لا نستطيع أن نفهم دقائقها وتفاصيلها..

تصور لو لم يحك لنا كعب ووهب قصة بقرة بني إسرائيل هل كنا سنفهمها.. إنها تصبح مثل قصة بلا أول ولا آخر..

قال ذلك، ثم توجه لتلاميذه قائلا: بالمناسبة.. من منكم يذكر قصة بقرة بني إسرائيل.. فقد قصصنا لكم مفصلة وموجزة..

قال تلميذ من التلاميذ: أنا أحفظ الموجزة منها على ظهر قلب.

قال الشيخ: فاسردها لنا حتى يعلم زميلك قيمة العلم.. وقيمة المعلومات التي بثها لنا أولئك الذين قيضهم الله لتفسير كتابه..

أخذ التلميذ يقرأ من ذاكرته، وكأنه يردد سورة من القرآن الكريم قصة عجيبة لبقرة بني إسرائيل ممتلئة بالأحداث والتفاصيل التي لم يتطرق القرآن الكريم إليها.

بعد أن انتهى قال الشيخ: بورك فيك يا بني.. أظن أنك في المستقبل القريب سيكون لك مجلس مثل مجلسي في هذه المدرسة.

قال تلميذ آخر: ولكن يا شيخنا من أين لنا أن هذه القصة صادقة؟

قال الشيخ: أول دليل على صدقها هو ذلك الثناء العظيم الذي أثنت به الأمة على رواتها.. فكعب الأحبار ووهب بن منبه من المشهود لهم بالعلم..

قال التلميذ: ولكني رأيت شيخا كبيرا مثل الشيخ محمد رشيد رضا يتهم هؤلاء بأنهم دسوا في الدين الخرافة والأسطورة، وقد قال في ذلك: (إن كعب الأحبار كان من زنادقة اليهود الذين أظهروا الإسلام والعبادة لتقبل أقوالهم في الدين، وقد راجت

دسائسه وانخدع بها بعض الصحابة فرووا عنه وتناقلوا مروياته بدون إسناد إليه حتى ظن بعض التابعين ومن بعدهم أنها مما سمعوه من النبي ﷺ)(1)

قال آخر: أجل.. وقد قرأت له قوله: (إن شر رواة هذه الإسرائيليات أو أشدهم تلبيساً وخداعاً للمسلمين وهب بن منبه وكعب الأحبار، فلا تجد خرافة دخلت في كتب التفسير والتاريخ الإسلامي في أمور الخلق والتكوين والأنبياء وأقوالهم والفتن والساعة والآخرة إلا منهما مضرب المثل)(2)

غضب الشيخ، وقال: ويله.. ما هذا الهراء الذي ينطق به.. أهو خير من شيخ الإسلام.. وغيرهم من أعلام السلف الذين اعتبروا كعب الأحبار خصوصا من أئمة الدين، وبحرا من بحور العلم.. بل إنهم اعتبروا من يتهم كعبا كمن يتهم الصحابة أنفسهم.. والشواهد الكثيرة تشهد لكعب الأحبار بصدق إسلامه وقوة إيمانه، ومن أبرز هذه الشواهد شهادة كثير من الصحابة له بذلك(3).

فإذا تتبعنا حياة كعب في الإسلام، ورجعنا إلى مقالات بعض أعلام الصحابة فيه، وأحصينا من تحمل منهم عنه وروى له، ومن أخرج له من شيوخ الحديث في مصنفاتهم.. لو فعلنا ذلك لوجدنا ما يدحض ويبطل هذه الفرية، ويشهد له بقوة دينه وصدق يقينه، وأنه قد طوى قلبه على الإسلام المحض والدين الخالص، ولغزارة علمه وكثرة معارفه لهج بعض أعلام الصحابة بالثناء عليه، فقال عنه أبو

---

1) مجلة المنار (27 / 541)

2) مجلة المنار (27 / 783)

3) نقلنا هذا، وبتصرف من موقع معتمد لدى التيارات السلفية، وهو موقع بيان الإسلام.

الدرداء: (إن عند ابن الحميرية لعلما كثيرا)[1]

أما خال المؤمنين معاوية، فقد وضعه مع كبار الصحابة، وأثنى عليه من بينهم، فقال: (ألا إن أبا الدرداء أحد الحكماء، ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء، إن كان عنده لعلم كالبحار، وإن كنا فيه لمفرطين)[2].. انظر كيف اعتبر نفسه مفرطا في التلقي عنه..

وهكذا نجد جماهير المحدثين على توثيق كعب؛ وأنى يكون ذلك وقد جلس الكثير من الصحابة بين يديه، ورووا عنه كما رووا عن رسول الله ﷺ سواء بسواء.. وهذا سر ما اختلط من رواياتهم عنه برواياتهم عن رسول الله ﷺ.. لقد حدث عنه من أعلام الصحابة كأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، ولم يكن هؤلاء ولا غيرهم ممن رووا عنه سذجا ولا مخدوعين فيه، وإنما أيقنوا أنه صدوق فيما يروي، فرووا عنه؛ لذلك قال عنه ابن حجر في التقريب: (ثقة مخضرم)[3]، وقد روى له مسلم في صحيحه، وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، وهو دليل على أن كعبا كان ثقة غير متهم عند هؤلاء جميعا[4].

استأذن تلميذ آخر، فقال له الشيخ: مجلسنا اليوم عن سليمان عليه السلام.. ولا أريد أسئلة أخرى خارج الموضوع..

قال التلميذ: عنه كنت سأسألك ..

قال الشيخ: ما دمت تريد أن تسأل عنه، فسل ما

---

1) الطبقات الكبير، ابن سعد، (9/449)

2) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، (5 /650)..

3) تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ص812..

4) الطبقات الكبير، ابن سعد، (9/ 449).

بدا لك.

قال التلميذ: ما معنى قوله تعالى { وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ } [ص: 34].. فقد اختبرنا بعض المشايخ البارحة فيها، فبهت، ولم يجد جوابا.

قال الشيخ، وهو يبتسم: على الخبير سقطت.. سأنبئك من نبئها ما يروي غليلك..

هذه الآية الكريمة تذكر الفتنة العظيمة التي وقعت لسليمان عليه السلام.. وقد ذهب أكثر المفسرين(1) إلى أن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان هو صخر الجني.

وقد اختلف المفسرون في اسمه، فالسدي ذكر أن اسمه حبقيق، وعن بعضهم: ان اسمه كان آصف، والمعروف هو الأول، وقد روي عن ابن عباس.

وأما قصته: فقد روي أن صخرا كان شيطانا ماردا لا يقوى عليه أحد، فابتلى الله تعالى سليمان به، وسلبه ملكه، وقعد هذا الشيطان على كرسيه يقضي بين الناس، وكان سبب ذلك أن ملك سليمان كان في خاتمه.

وقد قال وهب بن منبه: وكان ذلك الخاتم فما ألبسه الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة، وكان يضيء كضوء الشمس، فلما أكل آدم من الشجرة، وعصى الله تعالى سلب الخاتم، ثم إن الله تعالى أنزله على سليمان، وعقد به ملكه..

قال أحد التلاميذ: هلا وصفت لنا سيدنا صفة ذلك الخاتم، فقد شوقتنا إليه.

---

1) ما نذكره هنا من تفسير الآية هو من تفسير السمعاني (4/ 441)، فما بعدها.

قال الشيخ: لقد قمت بتحقيق معمق في ذلك.. وقد وصلت إلى أنه خاتم مربع له أربعة أركان، في ركن منه مكتوب: أنا الله لم أزل، وفي الركن الثاني مكتوب: أنا الله الحي القيوم، وفي الركن الثالث مكتوب: أنا العزيز لا عزيز غيري، وفي الركن الرابع مكتوب: محمد رسول الله.. وذكر بعضهم أن المكتوب عليه كان آية الكرسي.

قال التلميذ: فأكمل لنا القصة..

قال الشيخ: أين وصلت؟

قال التلميذ: لقد ذكرت لنا أن سر ملك سليمان كان في خاتمه..

قال الشيخ: أجل.. تذكرت.. كان سليمان عليه السلام إذا دخل مغتسله سلم الخاتم إلى جارية له، وقد كان له المئات من الجواري..

وقد دخل مرة وسلم الخاتم إلى الجارية، فجاء صخر في صورة سليمان، فأخذ الخاتم من الجارية.. أنتم تعلمون أن الجن يتشكل في الصور المختلفة.. وقد يكون من الجالسين بيننا الآن جني في صورة تلميذ من التلاميذ..

اقشعر جسدي لما قال، وصرت أنظر إلى التلاميذ الملتفين حوله، فأراهم بصور عجيبة مرعبة.. لكني تماسكت، ورحت أستمع إلى القصة.

قال الشيخ: .. وخرج سليمان يطلب الخاتم، فلم يجده، فعلم أن الله تعالى سلبه ملكه.. فذهب يسيح في الأرض، ولم يعرفه أحد بصورته، وكان يستطعم الناس، ويقول: أنا سليمان بن داود، فيكذبونه ويؤذونه ويزعمون أنه مجنون.

لقد ورد في مصادرنا الموثوقة أنه استطعم مرة

من قوم وزعم أنه سليمان بن داود، فقام رجل وشج رأسه بعصا في يده، ثم إنهم أعطوه كسرة يابسة، فحمل الكسرة إلى شط نهر ليبليها بالماء، وكان جائعا لم يصب طعاما منذ أيام، فذهب الماء بالكسرة.

وروي إنه كان على شط البحر، فجاءت موجة وحملت الكسرة، فدخل هو البحر في إثرها حتى خاف الغرق فرجع ورجعت الكسرة ثم إنه طمع فيها وذهب ليأخذها، فذهبت الكسرة، هكذا مرات..

رأيت تلاميذه يبكون بحرارة، ولم أدر هل كانوا يبكون على الكسرة التي فرت منه، أم على سليمان عليه السلام الذي وعده الله بأن يهبه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

قال بعض التلاميذ، ودموعه تنحدر: فهل ظفر بالخاتم.. وكيف عاد ملكه إليه؟

قال الشيخ: في يوم من الأيام.. وبعد محن كثيرة مر بها.. مر على قوم صيادين؛ فسألهم شيئا ليأكله فأعطوه سمكة ميتة، فشق جوفها، فوجد خاتمة فيها، فجعله في إصبعه، وعاد إليه ملكه، وعكفت الطير في الوقت على رأسه، واجتمع إليه الإنس والجن والشياطين.

رأيت الفرح باديا على وجوه التلاميذ، وصار يهنئ بعضهم بعضا من الفرح..

قال بعض التلاميذ: فما كان مصير صخر الجني، وماذا فعل بخاتم سليمان؟

قال الشيخ: لقد روي في مصادرنا الموثوقة أنه لما أخذ الجني الخاتم تحولت صورته إلى صورة سليمان.. ثم ذهب وقعد على كرسيه، وجعل ينفذ ما

كان ينفذه سليمان إلا أنه اختلف في قيامه بعلاقة مع نساء سليمان الكثيرات والتي يقربن من ألف امرأة.. فذهب البعض إلى أنه لم يكن يستطيع ذلك.. وذهب آخرون إلى أنه كان يصيبهن في فترة العادة الشهرية.. وذهب آخرون إلى أنه كان يصيبهن مطلقا[1].

قال تلميذ آخر: ألم يفطن بنو إسرائيل إلى التفريق بين صخر وسليمان؟

قال الشيخ: لقد روي في مصادرنا الموثوقة أن بني إسرائيل أنكروا أمر صخر الجني؛ لأنه كان يقضي بغير الحق؛ فذهبوا إلى نساء سليمان، وقالوا لهن: تنكرون من أمر سليمان شيئا، فقلن: نعم؛ فحينئذ وقع في قلبهم أن سليمان قد ابتلي، وأن الله تعالى سلبه ملكه، وأن الشخص الذي على الكرسي شيطان.

فأخذ بنو إسرائيل التوراة وجاءوا إلى حول الكرسي وجعل يقرؤونها؛ فطار صخر إلى أشرف القصر، ثم طار من شرف القصر ومر فوقع في البحر.

قال التلميذ: فما فعل سليمان بصخر عندما عاد إلى ملكه؟

قال الشيخ: روي في مصادرنا الموثوقة أنه لما رد الله تعالى على سليمان ملكه، أمر الشياطين بطلب صخر، فوجدوه وحملوه إلى سليمان؛ فصفده بالحديد، وجعله في صندوق، وألقاه في البحر، فهو في البحر إلى يوم القيامة.

وروي أن الشيطان هرب حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر، فأرسل سليمان –عليه السلام- في

---

1) تفسير السمعاني (4/ 442)

طلبه، وكان شيطانا مريدا يطلبونه ولا يقــدرون عليــه حتى وجدوه يوما نائما، فجـاؤوا فبنـوا عليـه بناينـا من رصاص، فاسـتيقظ، فـوثب، فجعـل لا يثب في مكـان من البيت إلا أن دار معه الرصاص، فأخذوه وأوثقــوه: وجـاءوا بـه إلى سـليمان –عليـه السـلام-، فـأمر بـه، فنقب لــه في رخــام، ثم أدخــل في جوفــه، ثم ســد بالنحاس، ثم أمر به، فطرح في البحر.

قال تلميذ آخر: ما هو السبب في رأيـك – سـيدنا – الــذي بســببه وقــع ســليمان عليــه الســلام في هــذه الفتنة؟

قـال الشـيخ: لقـد روي في مصـادرنا الموثوقـة في ذلك أقوال كثيرة.. منها أن اللـه تعـالى كـان أمـره ألا يتزوج امرأة من غـير بـني إسـرائيل، فخـالف وتـزوج امرأة من غيرهم، فابتلاه الله تعالى.. ومنها أنه كـانت عنده امرأة، وكان يحبهـا حبـا شـديدا، فخاصـم أخوهـا إلى سليمان في شيء مع إنسان، فطلبت المرأة من سليمان أن يقضي لأخيها؛ فقـال لهـا: نعم، ولم يفعـل ذلك، فابتلاه الله تعالى.. ومنها أنه احتجب من النـاس ثلاثة أيام، ولم ياذن لأحد، فأوحى الله تعـالى إليـه: يـا سليمان، إني إنما بعثتك وأعطيتك هذا الملك؛ لتنصف المظلومين، وتكون عونا للضـعفاء على الأقويـاء، ولم أعطك لتحتجب عن الناس.. ومنها أنه قال مرة: والله لأطوفن الليلة على نسائي، وكـان لـه ثلثمائـة امـرأة، وســبعمائة ســرية، ولتحملن كــل امــرأة منهن، وتلــد غلاما يقاتل في سبيل الله، فقـال لـه الملـك: قـل إن شاء الله، فلم يقل، فلم تحمل امـرأة منهن إلا امـرأة واحــدة حملت، فولــدت نصــف إنســان، وابتلاه اللــه تعـالى.. ومنهـا أنـه كـان أصـاب من بعض نسـائه في حالــة الحيض، فــابتلاه اللــه تعــالى.. وغــير ذلــك من الأقوال.

قال التلميذ: فما القول الذي تراه راجحا؟

قال الشيخ: لقد بقيت عشرين سنة أحقق في المسألة.. وقد عرفت بعد البحث الطويل أن السبب في ذلك هو أنه تزوج بامرأة؛ فعبدت المرأة صنما في داره من غير أن يشعر بذلك، فابتلاه الله تعالى لغفلته(1)..

قال تلميذ آخر: بالمناسبة - سيدنا- هلا حكيت لنا قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

قال الشيخ: تلك المرأة هي بلقيس بنت شراحيل.. وقد ذكر الثقاة أنه ولدها أربعون ملكا، آخرهم أبوها.. وكان أحد أبويها من الجن(2)..

قال التلميذ: عجبا لهم كيف طاب لأهل اليمن أن يولوا أمرهم امرأة؟

ضحك الشيخ، وقال: كيف تنتظر من قوم يعبدون الشمس أن يفطنوا إلى هذا.. ولهذا ورد عن سلفنا الصالح ذم أهل اليمن وغبائهم، فعن خالد بن صفوان قال واصفا أهل اليمن: (هم من بين دابغ جلد، وسايس قرد، وحائك برد، ملكتهم امرأة، ودل عليم هدهد وغرقتهم فأرة)(3)

قال التلميذ: فحدثنا عن الهدية التي أهدتها له.. ما كانت؟

قال الشيخ: لقد روي في مصادرنا الموثوقة أنها كانت مائة غلام، ومائة جارية.. وقيل أنها أرسلت إليه مائتي غلام ومائتي جارية، وكان بعضهم يشبه البعض

1) تفسير السمعاني (4/ 443)

2) تفسير السمعاني (4/ 89)

3) تفسير السمعاني (4/ 90)

في الصورة والصوت والهيئة، وقالت للرسول: قل له: ليميز بين الغلمان والجواري[1].

قال التلميذ: بربك سيدنا كيف استطاع سليمان عليه السلام أن يميز بين الغلمان والجواري؟

قال الشيخ: لقد قمت بتحقيق علمي مفصل في ذلك استغرق مني زمنا طويلا.. وها أنذا أقدمه لكم مجانا.. لقد وصلت إلى أنه أمرهم بالجلوس ودعا بالغلمان والجواري بأن يتوضئوا، فمن صب الماء على بطن ساعده قال: هي جارية، ومن صب الماء على ظهر ساعده قال: هو غلام.. وقد ذكر آخرون أنه جعل من بدأ بالمرفق في الغسل غلاما، ومن بدأ بالزند في الغسل جارية.. وذكر آخرون أنه جعل من أغرف الأناء غلاما، ومن صب على يده جارية.. وكل ذلك غير صحيح.. والصحيح ما ذكرته لكم.

قال تلميذ آخر: فما قصة القصر الممرد من قوارير ؟

قال الشيخ: لقد بحثت في ذلك أيضا.. وقد وصلت إلى أنه جعل تحته تماثيل من الحيتان والضفادع، وكان الواحد إذا رآه ظنه ماء.. وقد أمر سليمان - عليه السلام – أن يوضع سريره في وسط الصرح، ثم دعا بلقيس إلى مجلسه، فلما وصلت إلى الصرح ونظرت ظنت أنه ماء، فكشفت عن ساقيها لتدخل في الماء، فصاح سليمان: { إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ } [النمل: 44]

قال التلميذ: فلم صنعه.. ولم كشفت عن ساقيها؟

قال الشيخ: لقد قيل لسليمان عليه السلام أن على رجليها شعرا كثيرا.. أخبرته الجن بذلك.. فأراد أن يتأكد.

1) تفسير السمعاني (4/ 96)

قال التلميذ: فهل وجد الجن صادقين فيما ذكروه؟

قال الشيخ: أجل.. وقد ذكر ثقاتنا من أهل التفسير: أن سليمان - عليه السلام - قال للشياطين: ما الــذي يـذهب الشـعر؟ فاتخـذوا النـورة، وهـو أول من اتخـذ الحمام والنورة.

قال التلميذ: فلم استقدمها لقصره؟

قال الشيخ: ذلـك واضـح.. لقـد أراد أن يـتزوج بهـا، فقصد أن ينظر إلى ساقيها(1).

قال تلميذ آخـر: شـكرا جـزيلا شـيخنا.. لقـد عرفنـا اليوم من قصة سليمان عليه السلام ما لم يكن لنا أن نعرفه لولاك.. ولكن ألا ترى أنه كان لـه اهتمـام كبـير بالنساء؟

قـال الشـيخ: أجـل.. فقـد خلـق اللـه - عـز وجـل - الأنبياء والرسل، وفضلهم على سائر البشر، ومن تلك الفضائل القوة في هذا الجانب.. فقد أقر بذلك علماء الأمة سلفا وخلفا، وذلك لأن النقص في هـذا الشــيء يعد عيبـا، وحاشـاهم - صـلوات اللـه وسـلامه عليهم - أجمعين عن العيب والنقص، فالأنبياء معصومون.

وقد روى البخاري في صـحيحه عن أبي هريـرة عن النبي ﷺ قال: (قال سليمان بن داود: لأطـوفن الليلـة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شـاء اللـه. فلم يقـل، ولم تحمل شيئا إلا واحـدا سـاقطا أحـد شـقيه. فقـال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله)

وقد علـق النـووي على هـذا الحـديث بقولـه: (وفي هـذا بيـان مـا خص بـه الأنبيـاء - صـلوات اللـه تعـالى وسلامه عليهم - من القوة على إطاقـة هـذا في ليلـة

---

1) تفسير السمعاني (4/ 102)

واحدة، وكان نبينا ﷺ يطوف على إحدى عشرة امرأة لـه في السـاعة الواحـدة، كمـا ثبت في الصـحيحين، وهذا كله من زيادة القوة)(1)

وقال المناوي: (إن سليمان - عليه السـلام - تمـنى أن يكـون لـه ملكـا لا ينبغي لأحـد من بعـده، فـأعطي الملك، وأعطي القوة في الجماع؛ ليتم له الملك على خرق العادة من كل الجهات؛ لأن الملوك يتخذون من الحرائر والسـراري بقـدر مـا أحـل لهم ويسـتطيعونه، فـأعطي سـليمان - عليـه السـلام - تلـك الخصوصـية ليتميز بها عنهم، فكان نساؤه من جنس ملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده)(2)

قال تلميـذ آخـر: فحـدثنا عمـا فعلـه سـليمان عليـه السلام بالخيل لما شـغلته عن الصـلاة.. كمـا ورد في قوله تعالى: { وَوَهَبْنَـا لِـدَاوُودَ سُـلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْـدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَـادُ (31) فَقَـالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْـرِ عَنْ ذِكْـرِ رَبِّي حَتَّى تَـوَارَتْ بِالْحِجَـابِ (32) رُدُّوهَـا عَلَيَّ فَطَفِـقَ مَسْـحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33) } [ص: 30 - 33]

قال الشيخ: لقد بحثت في ذلـك.. وقـد وصـلت إلى أن سليمان عليه السلام عـرض عليـه الخيـل الجيـاد في وقت العصر، فألهـاه هـذا العـرض عن صـلاة العصـر، فلمـا اقــترب المغــرب غضــب، وطلب من اللــه أن يــرد الشـمس بعــد أن غــربت ليصــلي العصــر فــردت.. وكصورة من غضبه على الخيل لأنها كانت السبب في فوات العصـر وألهتـه عن الصـلاة قـام وقطـع سـوقها وأعناقها مسحاً بالسيف.

قال التلميذ: فكيف تعلل هذا السلوك من سـليمان

1) شرح صحيح مسلم، النووي، (6/ 2570)..

2) فيض القدير، المناوي، (4/ 659)..

ﷺ، ولم عذب الحيوان بالعرقبة، وأهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بـالنظر إليهـا ولا ذنب لها؟

قال الشيخ: لقد بحثت في ذلـك.. وقـد وصـلت إلى أنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه شغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنهـا للـه تعـالى عوضـه الله تعالى ما هـو خـير منهـا وهي الـريح الـتي تجـري بأمره رخاء حيث أصاب غـدوها شـهر ورواحهـا شـهر، فهذا أسرع وخير من الخيل(1).

بقي الشيخ إلى الليل.. وهو يجيب عن كـل سـؤال، ويذكر من الأقوال العجيبة فيه ما جعل القرآن الكريم في ذهني وأذهـان تلاميـذه كتابـا لا يختلـف عن كتـاب ألف ليلة وليلة.. ولا يختلف عن الحكايـات والأسـاطير التي كان يحكيها النضر بن الحرث لقومـه من قـريش ليشغلهم بها عن القرآن..

وللأسف مات النظر بن الحـرث الجـاهلي.. وخلفـه كثير ممن لا يقلون عنه من المسلمين..

قلت في نفسي، وأنا عائـد إلى بيـتي ممتلئـا حزنـا: (لقد استطاع الشيطان في الأخير أن يحـيي أسـاطير النضر)

سمعت صـوتا مزعجـا لسـت أدري مصـدره، يقـول لي: (.. لا.. بـل فعلت مـا هـو أخطـر من ذلـك.. لقـد حولت كلام ربكم إلى أساطير مقدسـة بعـد أن كـانت أساطير خرافة وتسلية)

1) انظر: تفسير ابن كثير: 7/65.

العلم.. والخرافة

تشكل المعارف العلمية المختلفة ركنا مهما من أركان القرآن الكريم، لا يمكن لمن يريد أن يلمس القرآن بطهارة إلا أن يراعيها، ويهتم بها، ويبحث عنها، ويبحث فيها.. فالله تعالى لم يذكرها عبثا، ولم ينزلها لمجرد أن نتعبد بتلاوتها، وإنما أنزلها لنبحث فيها، ونتدبرها، ونثيرها.

وهذا الركن المهم من القرآن الكريم ليس قليلا أو هينا حتى لا يرمى من لم يهتم به بالتقصير.. بل إنه يشكل ما يقارب خمس القرآن الكريم، فهناك أكثر من (1200) آية قرآنية على الأقل تشير إلى المعارف العملية المختلفة.

وكل آية منها تشير إلى حقائق الوجود الكبرى التي استغرقت من البشر قرونا طويلة للوصول إليها.. ولكن القرآن الكريم يعطيها لنا بسهولة ويسر، ويربطها بحقائق الوجود جميعا.

ولو أن الأمة أعملته في هذا الجانب، وتركت تلك التفسيرات التقليدية التي استندت إليها من موروثاتها البيئية أو الخرافية لكان السبق للأمة الإسلامية في جميع المجالات..

لكن ـ للأسف ـ سيطرت الخرافة على الحقيقة في تعامل الكثيرين مع القرآن الكريم، وخصوصا التيار السلفي.. الذي لم يكتف بأن يفرط في البحث عن حقائق الكون والعلوم المختلفة من خلال القرآن، بل راح يذم كل من يقوم بهذه الوظيفة، ويؤدي هذا الواجب نيابة عنه.

ولم يكتف بذلك أيضا، بل راح في هذا العصر الذي فتح الله فيه أبواب المعرفة العلمية على عباده، يغلق بشدة هذه الأبواب، ليعود للخرافة، ويفسر بها

القرآن، ويفسر بها الدين جميعا.

سأحكي لكم نبأ مدرستين زرتهما، قد تشرحان بطريقة أوضح ما قامت به الأيدي الملوثة من تحريف القرآن الكريم، ومن تحويله من أكبر كتاب علمي عرفته البشرية إلى أكبر كتاب خرافة.

العلم:

دخلت المدرسة العجيبة في شكلها ومحتواها.. المدرسة التي أطلق عليها أصحابها (مدرسة علوم القرآن).. وقد خطر على بالي بمجرد أن رأيت العنوان أنني سأرى من أقسامها (الناسخ والمنسوخ) و(المكي والمدني) و(الأشباه والنظائر) و(مبهمات القرآن).. وغيرها من العلوم التي نجدها عادة في الكتب المتخصصة في علوم القرآن..

وكنت أتصور كذلك أنني سأرى أساتذة مثل السيوطي والزرقاني والزركشي والذهبي والقطان وغيرهم ممن صنفوا في هذه العلوم.

لكني لم أر شيئا من ذلك.. بل رأيت عناوين غريبة كـ (الكون في القرآن)، و(الصحة في القرآن)، و(علوم الأرض في القرآن).. وغيرها من العناوين الغريبة.. وهذا ما دعاني إلى التأكد من كوني حقيقة في مدرسة تبحث في علوم القرآن.. وقد وجدت الجميع يؤكد لي ذلك، ويؤكد لي أن جميع من في هذه المدرسة من المختصين في هذه المعارف، وأنهم ينهلون الحقائق من بحر القرآن العذب، الذي هو المعجزة الكبرى، والذي هو الكتاب المقروء والمسطور والحقيقة المطلقة.. كما ينهلونها من الكتاب المفتوح والمنظور الذي هو الكون بما فيه.

أردت الدخول إلى قسم (الكون في القرآن)، فنهاني المشرفون على المدرسة، وقالوا لي: أنت

جديد هنا، ولذلك لا يحق لك أن تدخل أي قسم من أقسامها قبل أن تؤصل للأسس التي تقوم عليها.. فلا يحل لامرئ أن يقدم على أمر قبل أن يعلم حكم الله فيه.

لم أجد إلا أن أخضع لهم، فجلست في حلقة من الحلقات، وكان يلتف فيها بعض التلاميذ حول بعض الأساتذة..

كان الشيخ يقرأ قوله تعالى: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد } [سورة فصلت:53] بهدوء، ويقف أمام كل كلمة، وكأنه ينبه التلاميذ إلى ضرورة تدبرها والاهتمام بها.

بعد أن انتهى من القراءة، قال: أظن أن الآية الكريمة واضحة في الدلالة على وعد الله لعباده بأن يكشف لهم حقائق الآفاق والأنفس.. وواضحة في الدلالة على أنه في ذلك الحين سيتبين للناس أن الحقائق التي نطق بها الكريم حقائق صحيحة.. وسبب ذلك أن الله على كل شيء شهيد.. ولذلك يستحيل أن تتناقض المعارف المكتشفة مع المعارف التي أنزلها الله على عباده في كتابه.

لقد أشار الله إلى هذه الحقيقة في آية أخرى، فقال: { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون } [سورة النمل:93]

بل أخبر في مواضع مختلفة أن الزمن كفيل بأن يوضح من الحقائق القرآنية ما لم يكن مدركا في الزمن الذي أنزل فيه القرآن، قال تعالى: { لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُون } [سورة الأنعام:67]، وقال: { وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين } [سورة ص:88]

وهذا كله يدل على أننا نعيش في فترة الوعد

الإلهي، وأننا لا ينبغي أن نتخلف أبدا عن استخدام حقائق القرآن الكريم وموافقتها للمعارف العلمية المختلفة لهداية الناس إليه.. فقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك، فقال: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)(1)

بل أشار الله تعالى إلى تأثير الحقائق القرآنية في هداية أهل العلم، فقال: { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }[سبأ:6]

قال تلميذ من التلاميذ الملتفين حوله: اسمح لنا سيدي أن نطرح عليك بعض الشبهات التي يعرضها علينا تلاميذ المدرسة الأخرى الذين يرون أن الحقائق القرآنية كلها اتضحت من القرون الثلاثة الأولى، وأنه لا يحق لأحد مهما كان أن يتدخل في تفسير القرآن إلا إذا كان من أهل القرون الأولى، أو من تبعهم وسار خلفهم.

قال الشيخ: اذكر ما بدا لك.. فأنا أعرف جيدا شيوخ تلك المدرسة، وأعلم أنهم العقبة الكبرى التي تحول بين وصول حقائق القرآن إلى العالم..

قال التلميذ: إنهم يثبطوننا عن المعارف العلمية التي نتناولها في هذه المدرسة من الطب والفلك وغيرها.. ويذكرون لها أنها علوم دنيوية، ولا علاقة لها بالدين، ولا ثواب لمن تعلمها، ولا علاقة لها البتة بالقرآن الكريم..

ابتسم الشيخ، وقال: أمهلني يا بني.. أنت ذكرت شبها كثيرة.. وقد تعلمنا أن نفكك القضايا، ولا نضعها

1) رواه البخاري ومسلم.

جميعا في سلة واحدة.

قال التلميذ: فأجبني أولا عن حديث القرآن الكــريم عن العلم.. هل هو خاص بالعلم الديني الشــرعي من الفقــه والتفســير ونحوهمــا، أم أنــه يشــمل جميــع المعــارف العلميــة؟.. فهم ينطلقــون من هــذا في التحذير من سائر العلوم، ومن ربطها بالقرآن الكريم.

قال الشيخ: إن العلم في القرآن الكريم يشمل كل حقـائق الوجـود ابتـداء من أعظم حقيقـة، وهي اللــه سبحانه وتعالى، فالله تعالى لا يأمرنا أن نعبده فقــط، بل يأمرنا قبل ذلك أن نعرفه عن بصيرة وبرهان، قال تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ }[محمد:19]

وقـد أخـبر عن أصـناف عبـاده العـارفين بـه، فـذكر منهم أولو العلم، فقـال:{ شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلا هُـوَ وَالْمَلائِكَـةُ وَأُوْلُـوا الْعِلْمِ قَائِمًـا بِالْقِسْـطِ لا إِلَـهَ إِلا هُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[آل عمران: 18]

وهكذا فإن الله سبحانه وتعـالى يأمرنـا بـالنظر في كل الكائنات التي أبدعها لنزداد قربا منه، ومعرفة به، وخشية له، قال تعـالى: { أَلَمْ تَـرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ ثَمَـرَاتٍ مُخْتَلِفًـا أَلْوَانُهَـا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُـودٌ وَمِنْ النَّاسِ وَالـدَّوَابِّ وَالأَنْعَـامِ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ كَـذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } [فاطر: 27، 28]

انظر.. كيف أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر خشية العلماء لله أثناء ذكره لأحكام الشـريعة، وإنمـا ذكرهـا في معرض بيـان آياتـه في السـموات والأرض، ليـبين أن كمـال الخشـية يكـون في تلـك الرؤيـة المفصـلة لآيات الله في الكون.

ولهذا فـإن اللـه سـبحانه وتعـالى عنـدما ذكـر أولي

الألباب، وتوجههم إلى الله بالعبودية قدم الفكر في السموات والأرض على الذكر والعبادة نفسها، فقال: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب } [سورة آل عمران: 190].

بل إننا لو طبقنا مقاييس الفقهاء والأصوليين على الآيات الكريمة التي تتعلق بهذه الجوانب، فإننا نجد الحكم بالوجوب على تعلم هذه الحقائق، فالله تعالى يأمر فيها عباده بالنظر والتفكر في كونه، قال تعالى آمرا بالنظر: { قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [يونس: 101]، وقال آمرا بالسير: { قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ } [العنكبوت: 20]

قال التلميذ: لا يستطيع أحد أن يجادلك في هذا.. لكنهم يذكرون أنه لا علاقة لهذه العلوم بالقرآن الكريم.. وإن إدخالها فيه، أو ربطها به انحراف عن الغرض الذي أنزل من أجله القرآن الكريم.

قال الشيخ: وهل عرفوا الغرض الذي أنزل من أجله القرآن الكريم؟

قال التلميذ: هم يذكرون أنه توحيد الله وعبادته.

قال الشيخ: أليس من توحيد الله ما يسمونه (توحيد الأفعال)، وهو اعتقاد أن كل ما يحدث في الكون من أحداث هو من فعل الله؟

قال التلميذ: بلى.. هم يقولون بذلك.. ويحكمون بالشرك على من يخالفه.

قال الشيخ: فأخبرهم بأن دور كل العلوم التي يجحدونها هي الكشف عن تفاصيل تدبيرات الله في خلقه.. لقد ذكر كل العقلاء هذا..

انظر مثلا إلى الغزالي الذي مـر على وفاتـه قـرون عديدة كثيرة، ومع ذلك، فقـد ذكـر في كتابـه (جـواهر القرآن) قبل أن تفتح خـزائن العلـوم الـتي فتحت في عصرنا أن العلـوم كلهـا متشـعبة من القـرآن، فقـال: (ثم هـذه العلـوم مـا عـددناها ومـا لم نعـدها ليسـت أوائلها خارجة عن القـرآن، فـإن جميعهـا مغترفـة من بحـر واحـد من بحـار معرفـة اللـه تعـالى، وهـو بحـر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد) (1)

ثم ضرب أمثلة على ذلك، ومنها (الشفاء والمرض، كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: { وَإِذَا مَرِضْـتُ فَهُـوَ يَشْـفِين } [سـورة الشـعراء:80]، وهـذا الفعـل الواحـد لا يعرفـه إلا من عـرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفـة المـرض بكمالـه وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه) (2)

ومنهـا (أفعالـه تبـارك وتعـالى في تقـدير معرفـة الشمس والقمر ومنازلهمـا بحسـبان، وقـد قـال اللـه تعالى: { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَان } [سورة الرحمن: 5] وغيرهـا من الآيـات.. ولا يعـرف حقيقـة سـير الشمس والقمر بحسـبان، وخسـوفهما وولـوج الليـل في النهـار، وكيفيـة تكـور أحـدهما على الآخـر، إلا من عـرف هيئـات تـركيب السـماوات والأرض، وهـو علم برأسه) (3)

وهكذا ذكر أنه لا يعرف كمال معنى قوله تعـالى: { يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَـرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَـكَ فَسَوَّاكَ فَعَـدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُـورَةٍ مَـا شَـاءَ رَكَّبَـكَ (8) } [الانفطار: 6 ـ 8] إلا من عرف تشريح الأعضاء

1) جواهر القرآن (ص: 45).

2) جواهر القرآن (ص: 45).

3) جواهر القرآن (ص: 45).

من الإنسان ظاهرا وباطنا، وعددها وأنواعها وحكمتهـا ومنافعهـا، وقـد أشـار في القـرآن في مواضـع إليهـا، وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين) [1]

قـال التلميـذ: هم يعرضـون علينـا أيضـا أقـوال مشـايخهم وخاصـة من يسـمونه شـيخ الإسـلام.. وتلاميذه..

قال الشيخ: الحجة في القرآن الكريم لا في غيره.. والغزالي بشر كسائر البشر، وما ذكرته لـك من بـاب الاحتجاج، وإنما ذكرته من باب المثال على من يعطي القرآن الكريم حقه من التقـديس والتعظيم والتفعيـل في جميـع جـوانب الحيـاة.. والأمثلـة غـيره كثـير من السلف والخلف.

قال التلميذ: هناك شبهة أخرى يعرضـونها علينـا، أو يعرضها علينا من هو قـريب منهم.. حيث يـذكرون أن غيرنا يعمل ويبحث ونحن نأتي ونقول لهم: لقد سـبق القرآن إلى ذكر هذه الحقيقة.

قال الشـيخ: عـدم العمـل والبحث مشـكلة أخـرى، ولكنهـا لا تعـالج بـترك القـرآن، وعـدم التـدبر في حقائقه، وعدم ربطها بالعلوم المختلفـة، وإنمـا تعـالج بتطبيقه وتفعيله في جميع جوانب الحياة..

ثم ألا تـرى أن اللـه تعـالى أمرنـا بالجهـاد بـالقرآن واستعماله كوسيلة للدعوة إليه؟

قال التلميذ: بلى.. وقد قال تعـالى في ذلـك: { فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَـاداً كَبِـيراً } (الفرقـان: 52)

قال الشـيخ: فـأجبني: أرأيت لـو أن دولـة كـان لهـا

1) جواهر القرآن (ص: 46).

أسلحة متطورة كثيرة لم تكشف عنها لأعدائها، فلم يعرفوا أسرارها، ولا أنواعها، ولا أنواع القوة التي تحملها، فلذا كلما قدم أعداؤها سلاحا، كلما وجدوا عندها من الأسلحة ما يفوق ذلك السلاح.. أذلك خير أم دولة ليس لها من السلاح إلا ما تسلح به سلفها، وليس لها من القوة إلا ما ورثته، فأيهما أقوى قوة؟

قال التلميذ: لا شك أنها الدولة الأولى.

قال الشيخ: فهكذا الأمر في القرآن الكريم بين من يقول بإطلاق الإعجاز فيه، وبين من يقول بتحديده.

من يقول بإطلاقه يجعل القرآن الكريم كلام الله كنزا من كنوز العجائب والمعجزات، ومن يقول بمحدوديته لا يراه إلا كما يراه ذلك البدوي البسيط.. يراه من خلاله عنزاته وناقته وخيمته.

بقيت في تلك المدرسة مدة أتفقه على مشايخها، وأدرس العلوم المختلفة التي تدرسها.. وقد استفدت من ذلك كثيرا.. وتعمق إيماني بالقرآن الكريم.. وذقت لذة المعرفة بالله وبكتابه، وصرت أرى الكون بصورة أخرى أجمل وأكمل من التي كنت أراها به.

الخرافة:

لكني لفرط غبائي، أو لوسوسة الشيطان لي مررت ذات يوم على مدرسة الخرافة، فحدثتني نفسي أن أدخل إليها، وليتني ما أطعتها.. فقد حولت كل ما تزين في قلبي من زينة الإيمان إلى دمامة، وأبعدتني عن ربي وعن كتابه، ولم أتخلص من كل ذلك الركام الذي أحدثته في إلا بجهد جهيد.

وحتى لا يسرى لكم ما سرى لي من آثارها، سأقص عليكم نماذج قليلة مما سمعته.. وما خفي أعظم.

قال الشيخ لتلاميذه: وهل ذكر لكم المنبهرون بالعلوم العصرية شيئا آخر غير هذا؟

قال تلميذ من تلاميذه: أجل.. فقد مررنا عليهم البارحة، فوجدهم يرطنون ببدعة جديدة يفسرون بها قوله تعالى: { وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون } [سورة الذاريات:47]

قال الشيخ: وما يقولون؟

قال التلميذ: هم ينقلون عن الكفرة بأنهم اكتشفوا أن السماء تتوسع.. وأنهم أثبتوا ذلك بأدلة قطعية لا مجال للنظر فيها.

غضب الشيخ، وقال(1): ويلهم.. كيف يثقون في الكفرة.. ومن أين للكافر أن يعرف السماء.. إن جميع المفسرين الموجودة تفاسيرهم في مكتبتنا العامرة التي ورثناها عن آبائنا السابقين لا يفسرون الآية بذلك.. لقد قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد: { وإنا لموسعون } أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي)(2).. وهذا يدل على أن الله عز وجل قد خلق السموات وفرضها وأوسعها وفرغ منها، حتى جاء هؤلاء المخبولون يفسرونها بتفسير محدث يقتضي أن الله عز وجل لا يزال يزيد في السماء قليلا قليلا كحال من يعجز عن إيجاد الشيء دفعة واحدة..

إن قولهم هذا يتناقض مع قوله تعالى: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس: 82]

قال تلميذ آخر: وقد مررت عليهم البارحة،

1) نقلنا هذه التفسيرات الخرافية للقرآن الكريم بتصرف من كتاب (الصبح الشارق في الرد على توحيد الخالق) للشيخ السلفي يحي الحجوري.

2) تفسير ابن كثير ت سلامة (7/ 424).

فوجدتهم لا يزالون يرددون بأن الأرض تدور.. بل يحاولون أن يثبتوا ذلك من القرآن الكريم(1)..

قال الشيخ: ويلهم.. أوصلت بهم الجرأة إلى هذا.. أين عقولهم.. ألا يرون بعيونهم الأرض ثابتة لا تتحرك؟

ويلهم.. ألم يقرؤوا قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [سورة فاطر:41]، لقد قال جميع مفسري السلف رضوان الله عليهم: (ولو كانت الأرض تجري وتدور وتزول من مكان إلى آخر لكان هذا خلاف نص الآية الكريمة، والقائلون بالدوران يشككون في مثل هذه النصوص)

وقد ذكر رسول الله ﷺ بَابًا بالمَغرِبِ مَفتُوحًا لِلتَّوبَةِ خلقه الله يوم خلق السماوات والأرض لا يُغلَقُ حَتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِنهُ، حين أن يأمر الله بخروج علامات الساعة الكبرى.. وهذا الباب لا يدور تارة من الجنوب، وتارة من الشرق، وتارة من الشمال، وتارة ما بين ذلك، بل هو منذ خلق السموات والأرض لا يزال عند جهة المغرب على ما خلقه الله، ولو كانت الأرض تدور لدار معها يومًا من الدهر إلى جهة أخرى لكنها ساكنة لا تتحرك.

ذلك لأن الله ثبتها بالجبال أن تميد بِهم، ولو جعلها متحركة متزلزلة لما سكن الناس ولا هدأ لهم بال، بل تكون حياتُهم الدنيا عبارة عن عذاب مستمر.. ألا ترون حين حدوث بعض الزلازل التي يخوف الله بِها عباده في الأرض كيف تتهدم بيوتُهم، وتزهق أنفسهم، وتتقلقل معيشتهم ويصبحون خائفين وجلين مذعورين حزينين (2).

1) انظر الأدلة على هذا في كتابنا (معجزات علمية)

لقد قال الإمام عبدالقاهر بن طاهر البغـدادي يـذكر إجمــاع العلمــاء على ثبــوب الأرض: (وأجمعــوا على وقوف الأرض وسكونِها وأن حركتها إنما تكون بعارض يعرض لها من زلزلة ونحوها خلاف قول من زعم من الدهرية أن الأرض تَهوي أبدًا لأن الخفيف لا يلحق من هو أثقل منه في انحداره)

ثم قال: (وأجمعوا أن الأرض متناهيـة الأطـراف من الجهـات كلهـا وكـذلك السـماء متناهيـة الأقطـار من الجهات الست خلاف قول من زعم من الدهرية أنه لا نَهاية للأرض وأجمعوا أن السموات سبع طبـاق خلاف قول من زعم من الفلاسفة أنَّها تسع)(1)

قــال تلميــذ آخــر: لقــد لاحظت ســيدي من خلال اســتراقي للســمع في مجالســهم أنهم يــذكرون أن الأرض كوكب من الكواكب.

قـال الشـيخ: ويلهم.. مـا أجـرأهم على اللـه.. ألم يقرؤوا ما كتبه الشـيخ محمـد بن يوسـف الكـافي في رده على على بعض أشـياع محمــد عبــده المصــري، حيث قـال: (قولـه: (هي كـوكب) كـذب وافـتراء على اللـه تعـالى من سـماها كوكبًـا لأن اللـه تعـالى الـذي خلقها سماها أرضًا، والكوكب هو النجم ومحلـه العلـو ومن صــفاته الإضــاءة والإشــراق والأفــول والطلــوع والأرض بخلاف ذلك)(2)

قال تلميذ آخر: لقد رأيتهم يستدلون بقولـه تعـالى: { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَـا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَـا مِنَ الْمَـاءِ كُـلَّ شَـيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ } (الانبيـاء:30) على أن الجميـع من السـماء

2) انظـر الصـبح الشـارق، و(هدايـة الحـيران في مسـألة الـدوران) لعبدالكريم الحميد ص (21-22).

1) الفرق بين الفرق، ص (330-331).

2) انظر: الصواعق الشديدة على أتباع الهيئة الجديدة، ص (117)..

والأرض كـان متصـلا بعضـه ببعض متلاصـقا متراكمـا بعضـه فـوق بعض في ابتـداء الأمـر، ففتـق هـذه من هذه، ويستدلون لهذا بما يقوله الكفرة.

قـال الشـيخ: ويلهم.. ألم يقـرؤوا قـول العلامـة السلفي الكبير ابن كثير.. فقـد ذكـر في تفسـيره (أن الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء، بمعـنى أنـه أخـرج مـا كـان فيهـا بـالقوة إلى الفعـل. وهـذا معـنى قـول ابن عبـاس، وغـير واحـد، واختاره ابن جرير)(1)

وقـال في موضـع آخـر: (ففي هـذا دلالـة على أنـه تعـالى ابتـدأ بخلـق الأرض أولا ثم خلـق السـماوات سـبعا، وهـذا شـأن البنـاء أن يبـدأ بعمـارة أسـافله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرح المفسرون بذلك)(2)

أما الآية الكريمة التي استدلوا بها، فأرجح التفاسير فيها أقوال ابن عبـاس وابن عمـرو ومجاهـد ابن جـبر وغـيرهم أن معـنى (رتقًـا) في الآيـة أي أن السـماء كـانت رتقًـا لا تمطـر، والأرض رتقًـا لا تنبث، ففتـق السـماء بـإنزال المطـر منهـا، وفتـق الأرض بـإخراج النبات منها.

قال تلميـذ آخـر: لقـد سـمعت البارحـة من أحـدهم قولـه: (لقـد كشـف العلم الحـديث أن الليـل يحيـط بالأرض من كل مكـان، وأن الجـزء الـذي تتكـون فيـه حالـة النهـار هـو الهـواء الـذي يحيـط بـالأرض ويمثـل قشرة رقيقة تشـبه الجلـد، وإذا دارت الأرض سـلخت حالة النهار الرقيقة)، ورأيتـه يفسـر بقولـه هـذا قولـه تعالى::{ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْـلُ نَسْـلَخُ مِنْـهُ النَّهَـارَ فَـإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ } (يّـس:37)

---

1) تفسير ابن كثير ت سلامة (8/ 316).

2) تفسير ابن كثير ت سلامة (ج1/ 213).

قال الشيخ: ويله.. كيف استطاع أن يعرف سمك النهار، وأنه قشرة رقيقة تشبه الجلد، فإن المعلوم يقينا أن الليل والنهار ليست له سماكة محسوسة بحاسة اللمس.. ثم إن المفسرين من سلفنا الصالح لم يفهموا هذا الفهم الذي فهمه هؤلاء الأساتذة الذين يتتلمذون على اليهود والنصارى.

قال تلميذ آخر: لقد رأيتهم دائما يرددون قوله تعالى: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد } [سورة فصلت:53]، ويستدلون بها على بدعهم.

قال الشيخ(1): ألا يعلم هؤلاء الجهلة أن الوحي قد انقطع من السماء، وقد تبين الحق بالقرآن والسنة ولم يمت النبي ﷺ حتى بين للناس أعظم بيان وأقام عليهم الحجة؟

ألا يعرفون أن الله سبحانه قد أكمل دينه وأظهر الحق للناس، وأرانا آياته في الآفاق من ليل ونَهار وأحجار وأشجار وأنْهار وشمس وقمر ونجوم وسماء وأرض وغيرها من الآيات المشاهدة حتى في أنفسنا، ولم يحوج الله خلقه إلى هلوسة المستشرقين.

إن من اللوازم الخطيرة لاستدلالهم ذلك أن الله سبحانه لم يبين الحق لعباده من لدن رسول الله ﷺ حتى جاء صاحبنا وأساتذته وقرروا للناس أشياء في الكون يتبين للناس بِها الحق، وتقوم عليهم بِها الحجة التي لم تقم على من قبلهم لجهلهم ببيان الحق في القرون السابقة بعد البعثة النبوية إلى زمننا هذا، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الحجة لا تقوم إلا بعد بيان الحق للناس، كما قال تعالى: { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ

1) الصبح الشارق، 100 بتصرف.

سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [النساء: 115]، وقد استدل السلف بِهذه الآية وأمثالها على أن من لم يتبين له الحق والهدى لم تقم عليه الحجة.

ومعنى هذا أن الذين ماتوا على الشرك بالله، قبل أن يخلق هؤلاء الجهال الحمقى إن عذبَهم الله يكون ظالمًا لهم.

بعد أن انتهى الشيخ من حديثه ضحك تلميذ بصوت عال، فغضب الشيخ، وقال: ويلك .. أتضحك على كلامي.. لأفعلن بك ولأفعلن.

صاح التلميذ: اعذرني يا أستاذ.. فمعاذ الله أن أضحك على كلامك.. أتريدني أن أقع في الكفر.

قال الشيخ: فما الذي أضحكك إذن؟

قال التلميذ: لقد ذكرت أني كنت مع بعض أولئك المبتدعة مرة، فسمعتهم يذكرون أن المسافة بيننا وبين الشمس (93) مليون ميل، وأن الضوء يقطعها في ثمان دقائق..

قال ذلك، ثم عاد للضحك من جديد،وضحك معه جميع الحضور إلا الشيخ فقد كان يمسك نفسه بشدة حتى لا يضحك معهم حرصا على وقاره..

بعد أن سكتوا، قال(1): هذه المسألة كسابقتها مبنية على التهوكات والتهويلات وإلا فإنكم تلاحظون أنه ما إن يخرج قرص الشمس من المشرق إلا وتمتلئ الدنيا بالضوء دون أقل من دقيقة واحدة، ولو أن الشمس كانت تحت السحاب، ثم تجلى عنها لرأيت أن الدنيا سرعان ما تضيء بدون تحديد أقصر زمن، وكذلك القمر.

1) الصبح الشارق، ص118.

فمن التخــرص الــذي لا يصــدقه ذو عقــل وبصــر وفطرة سليمة أن يقال إن الشمس حين تطلـع جليـة من المشــرق أو في الســماء لا يصــل الضــوء إلى الأرض إلا بعـد ثمـان دقـائق، وتبقى السـماء صـافية والشمس مضيئة مدة سبع دقائق والنـاس يشـاهدون ذلـك بين ظلمــة الأرض وفي الدقيقــة الثامنــة يصــل إليهم الضوء فتشرق الأرض.

انظـروا إلى هـذا الكلام السـامج .. وانظـروا كيـف يقررون توحيد الله بـأقوال الملاحـدة الـذين يحـاولون إدخال الشكوك في قلوب جهال المسـلمين وإضـاعة أعمـارهم في دراسـة مثـل هـذا الهـذيان الفـارغ، بـل الطعن في عقائـد المسـلمين وعلـومهم والحـط من قــدر علمــاء الشــريعة الإســلامية حيث لم يعلمــوا المسافة بين الشمس والأرض، ومن حسن حظهم أن تحصلوا على مجموعـة خاويـة من الحمقى والمغفلين يثبتــون لهم هــذه الأطروحــات على أنَّهــا حقــائق ويتعـاونون معهم على الإثم والعـدوان باسـم الـدين. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإن أرادوا أن الشــمس لا تطلــع والأرض مظلمــة لكن عرفوا ذلك فيما يزعمون بسرعة الضـوء ونحـوه قلنا: كيف عرفوا ذلك، وأنى لهم أن يعرفوا المسـافة بســرعة الضــوء في الأرض، وأي ضــوء وصــل إلى الشـمس وأضـاء عليهـا على ذلـك البعـد الهائـل من الأرض، فأفٍ لمن رضي بالكذب وأفٍ للكذابين.

قـال تلميـذ آخـر: لقـد مـررت البارحـة على بعض المبتدعـة والزنادقـة ممن لم تقنعهم علـوم السـلف، فراحوا إلى علوم الكفار يفسرون بها القرآن الكـريم، وقد حصلت بيني وبينهم مشـادة عنيفـة أوقفتهم فيهـا عند حدودهم.

ابتسـم الشـيخ مسـرورا، وهـو يقـول: لطالمـا كنت

فرحا بك يا بني.. أرى أن لك مستقبلا رائعا.. لست أدري كلما رأيتك تذكرت البربهاري وابن بطة وشيخنا شيخ الإسلام.

قال التلميذ: وكيف لا أغضب يا أستاذ، وأنا أرى حمى القرآن ينتهك.. لقد سمعتهم يفسرون قوله تعالى: { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِين } [سورة الحجر: 22] تفسيرا تقشعر منه الأبدان.. لقد سمعتهم يذكر أن الرياح تحمل الماء من البحار، ثم تصعد به، ثم يعود ينْزل من السماء مرة ثانية..

قام الشيخ غاضبا، وهو يقول: ويلهم ما أجرأهم على الكذب.. لقد ذكرت لكم بطلان هذه الأسطورة سابقًا.. لقد قال ابن كثير في تفسيرها: (ترسل الرياح فتحمل الماء من السماء، ثم تمر مرَّ السحاب، حتى تدرّ كما تدرّ اللقحة)، وذكر أن هذا هو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة، وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء.

قال تلميذ آخر: لقد فعلت يا سيدي مثلما فعل زميلي الذي تشبهه دائما بالبربهاري.. لقد لقيت البارحة جماع سمعت يرطنون بتلك الهرطقات، فرميتهم بحجارة كثيرة أسالت دماءهم، وفرقت مجلسهم.

قال الشيخ: بورك فيك يا بني.. أنت أيضا أجلك وأحترمك، وأعتقد أن لك مستقبلا في النهي عن المنكر والرد على الملاحدة والزنادقة لا يقل عن شيخنا شيخ الإسلام، وسلفنا البربهاري.

قال التلميذ: تصور سيدنا.. لقد سمعتهم يمجدون أشخاصا من الكفرة كأينشتاين، وأديسون، وباستور.. وأسماء أخرى غريبة.. وفوق ذلك يذكرون أسماء

لكتب في التنجيم والكيميـــاء ونحوهـــا من علـــوم السحرة..

غضب الشـيخ، وقـال[1]: كلامهم هـذا أعظم خيانـة لأبناء المسلمين من وجهين:

الأول: أن مصدر التوحيـد وجميـع علـوم الشـريعة الإسـلامية هـو الكتـاب والسـنة فكـان يجب عليهم أن يتحدثوا عن مصادر التوحيد مثل،(الدر النضيد(للإمـام الشـوكاني، و(تطهـير الاعتقـاد) للإمـام محمـد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، و(الأصول الثلاثة) و(كشف الشـبهات) وكتـاب،(التوحيـد) للإمـام محمـد بن عبدالوهاب النجدي، و(الواسطية) لشـيخ الإسـلام ابن تيمية، و(لمعة الاعتقاد) للإمـام ابن قدامـة، و(السـنة) للإمـام البربَهـاري، و(الرسـالة الوافيـة في اعتقـادات السنة) لأبي عمرو الـداني وأمثـال هـذه المختصـرات النافعة المفيدة والعقائد الصحيحة والعلـوم الميسـرة لهؤلاء الأئمة الناصحين رحمهم الله تعالى.

أما مراجع العلوم الكونية من الفلكـيين والفلاسـفة وأعداء الدين والجهال والمتهوكين الذين ربما أحـدهم لا يعـرف سـورة الفاتحـة فضـلاً عن أن يعلمـوا المسلمين توحيـدًا أو يكسـبوا منم معتقـدًا صـحيحًا أو خلقًا حميدًا فهذه ذات الخيانة.

اشـتد بـه الغضـب، فقـام يصـرخ: لمـاذا لا يـدلونهم على قراءة (عمدة الأحكام) و(اللؤلؤ والمرجـان فيمـا اتفـق عليـه الشـيخان) و(بلـوغ المـرام) ونحوهـا من المختصـرات إذا كـانوا لا يفهمـون كتب الأسـانيد كـ، (صـحيح البخـاري) و(صـحيح مسـلم) وأمهـات كتب الحديث!

لمـاذا لا يرغبـونهم في حفـظ كتـاب رب العـالمين

1) انظر الصبح الشارق بتصرف، ص162.

وتـدبره وفهم معانيـه على فهم السـلف الصـالح من أصحاب رسول الله ﷺ والقرون المفضلة رضوان الله عليهم.

لماذا يصدون الشباب المسلم ويصـرفونهم إلى مـا لا يقدرون منه على شيء في دنياهم ولا أخـراهم مـع صـعوبة مقدماتـه وإتلاف الأوقـات فيـه ولا يعـود على صاحبه يوم القيامـة إلا بالحسـرة والندامـة، كمـا قـال تعالى: { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْـهِ يَقُـولُ يَـالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الـذِّكْرِ بَعْـدَ إِذْ جَـاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } [الفرقان: 27 - 29]

قال ذلك، ثم جلس يتنفس الصعداء، فقال له بعض تلاميذه: لقد ذكرت الوجه الأول.. فما الوجه الثاني؟

قال الشيخ: الوجه الثاني ما يحويه كلامهم ذلـك من خيانــة لأبنــاء المســلمين.. حيث يعظم في نفوســهم ويرتســم في أذهــانِهم إجلال أصــحاب هــذه العلــوم البائرة من يهود ونصـارى وفلاسـفة حيـارى ومـروجي أفكـــارهم من جهـــال المســـلمين الـــذين لم يـــأتوا للمسـلمين إلا بتشـويش الأذهـان، وزعزعـة العقيـدة الصحيحة، وزعزعة الثقـة بكلام اللـه عـز وجـل وكلام رسوله ﷺ.

فهــؤلاء بســبب جهلهم وعــدم تــربيتهم على كتب السنة وأهلها يقعون في هذه العظائم، وهم يحسـبون أنَّهم يحسنون صنعًا، وأنَّهم أحدثوا للإسلام عزًا ونصرًا وهم كمـا قيـل: لا للحـق نصـروا، ولا للباطـل كسـروا وإنما كانوا مفاتيح أبواب الشرور.

بقي الشـيخ يـردد هـذا وأمثالـه أمـام تلاميـذه، ولا يكتفي برد الحقائق المعلومة من العلم بالضرورة، ولا يكتفي بأن يكون جاهلا مركبا معقـدا، يصـور الخرافـة

بصورة العلم، ولكنـه يضـيف إلى ذلـك صـلافة وعنفـا وغلظة وجفاء لا تحتمل.

يشكل التعريف بالله الجانب الأساسي والمركزي الذي تدل عليه جميع آيات القرآن الكريم صراحة أو إشارة أو إماء..

فلا تكاد تخلو آية إلا وتعرفنا بربنا سبحانه وتعالى: تملؤنا منه مهابة، وله حبا، وبه ثقة، وعليه اعتماد وتوكلا، ومنه أنسا وإليه قربا..

يشعر القارئ لكتاب ربه، وكأنه يسمع ربه، ويراه من خلال تلك المعاني المقدسة الجميلة التي تلوح له في كل سورة.. بل في كل آية.. بل في كل حرف..

يسمع قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير } [سورة الحديد:4]، فيشعر بعلم الله الذي لا حد له، والذي يسع الكليات والجزئيات، بل أدق التفاصيل.. ويشعر بإبداع الله الدائم المتجلي في خلقه لكل شيء.. ويشعر بتدبير الله وتصرفه وملكيته لكل الكائنات..

ومع كل هذه المشاعر المهيبة يشعر بأن الله قريب منه، وأنه معه لا يغيب عنه.. وأن في إمكانه أن يتصل به متى شاء، ولأي أمر شاء.

كنت أردد هذه الآية الكريمة، وأحاول أن أعيش معناها، وأنا أسير في تلك البلدة باحثا عن مدرسة قيل لي بأنني أجد فيها تفسير قوله تعالى:{ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ

كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُـواْ الألْبَـاب } [سـورة آل عمران:7]

وأن فيهـا من الراسـخين في العلم من يمـيز بين المحكم والمتشابه، ومن يرد المتشابه إلى المحكم.

المحكم:

ما هي إلا لحظات قليلة حـتى وجـدتها، وقـد تعجبت إذ رأيت بنيانهـا القـديم البـالي، وتعجبت أكـثر عنـدما رأيت قلة تلاميذها، وأساتذتها.

مـا إن دخلت حـتى مـالت نفسـي إلى مجلس من مجالسها، فرحت أسمع ويرى ما يجري فيه.

قال الشيخ: لقد برهنت لكم في المجالس السـابقة ما عساه يقنعكم بأن الغرض الأكبر للقرآن الكريم هو التعريف بالله، وملء النفس تعظيما له، وملء القلب محبة له.. لتتحرك حياة الإنسان بعـدها وفـق مرضـاة الله، ووفق ما تقتضيه عبوديته.

قال تلميذ من التلاميذ: أجل سيدنا.. ولكن مع ذلـك لم تذكر لنا أهم شيء في هذه المعرفة.. وهو معرفة الذات، وقد رأينا من إخواننا من مدرسة المتشابه من يعيبون علينا ذلك، ويقولون بأننا نعبـد الـوهم، فنحن لا نعرف من ذات ربنا لا نقيرا ولا قطميرا..

ويقولون لنا ساخرين: كيف تعبدون إلهـا ليس فـوق العـالم، ولا تحتـه، ولا عن يمينـه، ولا عن يسـاره، ولا يحس، ولا يشم، ولا يـرى أبـداً، وأنـه لا يحويـه مكـان، وأنه لا يوصف بالنزول، ولا المجيء، ولا الهرولة..

ويقولون لنا: إن تلك الأوصاف وغيرها كثير لا تقـال إلا للمعدوم.

ويذكرون لنا بأننا نعطل القرآن الكـريم بـذلك.. بـل

نعطل السنة المطهرة.. ونعطل معها كل مـا ورد عن السلف الصالح من الآثار.

وبذلك لا يمكننا أبدا أن نعرف الله.. فمعرفتنا باللـه لا تختلف عن معرفتنا للوهم.

وقد ذكروا لنا في ذلك قول شيخهم الذي يعتبرونـه شيخا للإسـلام: (.. ففي التـوراة والقـرآن من الآيـات التي ظاهرها التجسيم ما لا يحصـى، وليس فيهـا نص بما يقوله النفـاة من أن اللـه ليس بـداخل العـالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنـه.. إلى نحـو ذلـك من النفي الـذي يقولـه نفـاة الصـفات. فمعلـوم أنـه ليس في الكتب الإلهيـــة لا التـــوراة ولا الإنجيـــل ولا الزبور ولا القرآن ولا غـير ذلـك من النبـوات من هـذا حـرف واحـد، وكلهـا مملـوءة ممـا يقـول هـؤلاء إنـه تجسيم)(1)

ابتسم الشيخ، وقال: وهل أجبتموهم؟

ابتســم التلميـذ، وقـال: وهـل تركـوا لنـا الفرصـة لجـوابهم.. لقـد رمونـا بـالتجهم والـرفض والاعـتزال.. وكفرونا.. وأباحوا دماءنا.

قال الشيخ: ومـا يمنعكم من أن تسـلكوا سـبيلهم.. وتنضموا إليهم، لتحقنوا دمـاءكم من جهـة.. ولتعرفـوا ذات ربكم من جهة أخرى.

قـال التلميـذ: منعنـا من ذلـك أمـران: أمـا أولهمـا فإحساسنا في مجالسكم بعظمة ربنا وعدم محدوديته وتقدسه أكثر من إحساسنا في مدرستهم..

وأمـا الثـاني، فهـو أنهم يلزموننـا إذا انضـممنا إلى مدرستهم بـأن نقـول أقـوالا شـنيعة في حـق ربنـا، لا تطيق عقولنا قبولها.. وهم يفرضونها فرضـا على كـل

1) الجواب الصحيح 4/453

من دخل مدرستهم وإلا طردوه منها.

قال الشيخ: فما يقولون؟

قال التلميذ: إنهم يلزموننا أن نقول بأن لله صورة ووجهاً زائداً على الذات، وعينين وفماً ولهوات وأضراساً ويدين وأصابع وكفاً وخنصراً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين.. وأنه يجوز أن يمس ويمس، ويدني العبد من ذاته.. بل يلزمنا بعضهم أن نقول بأنه يتنفس(1).

وقد ذكروا لنا أن كل مخالفة لذلك مخالفة للقرآن الكريم، وللسنة المطهرة.. وأنه لا حظ لمن لا يؤمن بها في معرفة الله.. وأن من ينكر ذلك عابد للوهم.

قال الشيخ: فمن أين لهم كل هذه المعرفة؟

قال التلميذ: هم يعتبرون كل ما أضافه الله إلى نفسه صفة من صفاته، ولذلك أطلقوا على جميع ما ورد منسوبا لله صفة لله كاليد والوجه والساق وغيرها، واعتبروا المؤول لها معطلا.

قال الشيخ: فقد أضاف الله إلى نفسه بحسب ما تقتضيه اللغة المكر والخداع.. فهل ينسبونها لله؟

قال التلميذ: أجل.. هم ينسبونها لله.. ويذكرون أنها صفات نقص في الإنسان، وكمال في الله.

قال الشيخ: فقد أضاف الله إلى نفسه الروح، وذكر أنه نفخها في الإنسان، فقال: { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِين } [سورة الحجر:29]، فهل يزعمون أن الروح المنفوخة في الإنسان هي روح الله؟

---

1) انظر: الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب لابن الجوزي (ص: 2)

.

سكت التلميذ، فقال الشيخ: فقد أضاف الله النسيان لنفسه، فقال: { نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ } [سورة التوبة:67].. فهل ينسبون النسيان إلى الله؟

قال التلميذ: هم يتصرفون في مثل هذه النصوص تصرفا خاصا، ويؤولونها بطرق عجيبة غريبة..

وقد حضرت مرة مجلسا من مجالسهم أولوا فيه كل الآيات الدالة على قرب الله من عباده، وقد نقلوا عن شيخهم الذي يسمونه شيخ الإسلام والذي يرجعون إليه كل حين قوله في الآية الكريمة: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد } [سورة ق:16]: (هو قرب ذوات الملائكة وقرب علم الله)(1)، ثم عقب على ذلك بقوله: (وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد إذ أن ذاته أقرب فهذا في غاية الضعف)(2)

وهكذا قال في موضع آخر: (إن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة.. ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير } [سورة الحديد:4] دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته)(3)

---

1) الأسماء والصفات 2/98.

2) الأسماء والصفات 2/349.

3) الأسماء والصفات 2/81.

قال الشيخ: فلم لم يذكروا أن في هذا الصرف تعطيلا لما وصف الله تعالى به نفسه.. ولم لم يقولوا: التقرب معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب؟

قال التلميذ: هذا سر نفورنا منهم.. فهم يتناقضون كثيرا.. فبينما يعتبرون التأويل تعطيلا وتجهما ورفضا.. إذا بهم هم أنفسهم يؤولون، بل يكاد تأويلهم يغلب تأويل جميع مخالفيهم.. فهم من أجل إثبات علو الله ينفون كل آيات المعية وما يدل عليها، وما أكثرها في القرآن الكريم..

بل إن بعض مشايخهم المعاصرين ذكر جواز صرف اللفظ عن ظاهره، ولكنه لم يسمه تأويلا، بل سماه تفسيراً، فقال في جواب من سأله عن قوله تعالى: { يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } [سورة الفتح:10]: (ينبغي أن يُعلم أن التأويل عند أهل السنة ليس مذموماً كله، بل المذموم منه مالم يدل عليه دليل، وما دل عليه دليل يسمى تفسيراً سواء كان الدليل متصلاً بالنص أو منفصلاً عنه، فصرف الدليل عن ظاهره يسمى تفسيراً، فصرف الدليل عن ظاهره ليس مذموماً على الإطلاق)(1).

قال الشيخ: هذه عاقبة كل من يترك المحكم، وينصرف إلى المتشابه.. فلا هو يفهم المتشابه.. ولا هو يعطي المحكم حقه الذي أعطاه الله له.

لقد سمع النبي ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: (هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تضربوا بعضه بعضاً، ما علمتم منه فقولوا وما لا فكلوه إلى عالمه) (2)

---

1) مجموع فتاويه 1/ 168

2) رواه أحمد.

وروي أنـه ﷺ تلا آيـة المحكمـات والمتشـابهات، ثم قال: (إذا رأيتم الذين يتبعـون مـا تشـابه منـه فأولئـك الذين عنى الله فاحذروهم)[1]

قال تلميـذ الآخـر: نحن نعلم التخبـط الـذي يقعـون فيه.. ولكنا نتألم عندما يذكرون لنا بأننـا نجهـل اللـه.. وأننـا نعبـد الـوهم.. وقـد سـربوا لنـا بسـبب ذلـك من الشبهات ما احتجنا إليك فيه لرده.

قال الشيخ: لـو رجعنـا إلى المحكمـات في القـرآن الكـريم لانتفت لـدينا كـل مشـكلة، وحلت لنـا كـل معضـلة.. والمحكمـات المرتبطـة بتعريـف اللـه في القرآن الكريم لها مجالان كبيران: التنزيـه والتعظيم.. ولذلك شرع لنا في الأذكار أن نقـول: (سـبحان اللـه) الدالة على التنزيه.. ونقول (الحمـد للـه) الدالـة على التعظيم.. فمن جمع بينهما فهو العارف حقا.

وكل أسماء الله الحسنى تـدل على أحـد هـذين، أو تجمع بينهما.

قال التلميذ: وما تقـول في الإضـافات الـتي تعلقت بها مدرسة المتشابه.. والتي اعتبرتها صفات لله؟

قال الشـيخ: النـاس فيهـا نوعـان: عـوام وخـواص.. وقد ذكر القرآن الكـريم التفريـق بينهمـا في التعامـل مع هذا في الآية الكريمة.

قال التلميذ: فما حكم العوام فيها؟

قال الشيخ: العوام ليس لهم القـدرات على البحث فيها، ولذلك حسـبهم أن يتنـاولوا المحكمـات، ويكلـوا علم المتشـابهات إلى اللـه تعـالى.. أو أن عليهم أن يؤمنـوا بمـا ورد فيهـا مـع صـرف اللفـظ المـوهم عن

---

1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ظاهره وردِّ العلم بالمراد إلى الله تعالى[1].

وقد ذكر مشايخنا في هذا أمورا على العوام مراعاتها تجاه المشابهات[2]:

منها اليقين بتنزيه الله عز وجل وتعظيمه تصديقاً لقوله تعالى في الآية الكريمة: قال تعالى: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير } [سورة الشورى: 11]

ومنها التصديق بما جاء في القرآن الكريم وما وافقه من السنة الصحيحة، وأنه حق على المعنى الذي أراده الله ورسوله.

ومنها الاعتراف بالعجز عن معرفة ذات الله عز وجل والإحاطة بوصفه.

ومنها السكوت عما سكت عليه الصالحون، والكف عن السؤال عنه كما كفوا، وأن لا نخوض فيه.

ومنها الإمساك عن التصرف في تلك الألفاظ. فنمسك عن تفسيرها بلغة أخرى، لأن من الألفاظ العربية ما لا يطابقها في غير العربية، وفي اللغة العربية تراكيبُ لغويةٌ تدل على معان لا تدل عليها بترجمة ألفاظها..

ونمسك عن تصريفها فلا نقول في قوله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [سورة طه:5]، هو المستوي على العرش لأن الفعل يدل على استواء مرتبط بزمان، واسم الفاعل ليس كذلك ففي مثل هذا التصريف زيادةُ معنى ربما لا يكون مراداً في اللفظ الوارد.

---

1) انظر شرح جوهرة التوحيد للباجوري 149.

2) انظر إلجام العوام لحجة الإسلام الغزالي 64-84

ونمسك عن تجميع ماتفرق من هـذه الألفـاظ، كمـا يفعـل زعمـاء مدرسـة المتشـابه حين يجمعـون في كتـاب واحـد أخبـاراً تحت بـاب خصـوه لإثبـات اليـد، وخصوا باباً لإثبات الرجل، وباباً لإثبـات الوجـه، فقـوي بذلك الإيهام وغلَب الحس.

ونمسك عن تجريد اللفـظ عن سـياقه وسـباقه لأن كل كلمة سابقة ولاحقة تـؤثر في إفهـام المـراد فـإذا بلغنا قول الله عز وجل: { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَـوْقَ عِبَـادِهِ } [سـورة الأنعـام:18]، فلا يجـوز أن نقـول: (هـو فـوق عباده)، لأن لفظ القاهر قبله يشير إلى فوقيـة الرتبـة والقهر، كما قـال تعـالى على لسـان فرعـون: { وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون } [سورة الأعراف:127]، ونزعُ لفـظِ القاهر يعطل هذا المعنى الذي يحتمله السياق احتمالاً قوياً ويوهم فوقيةً غيرَها لم يكن ليُفطن إليها لولا هذا التجريد عن السياق، بل قولنـا: (القـاهر فـوق غـيره) ليس كقولنا: { وَهُـوَ الْقَـاهِرُ فَـوْقَ عِبَـادِهِ }، لأن ذكـر العبودية مـع كونـه موصـوفاً بـأن القـاهرَ فوقـه يؤكـد فوقية السيادة والقهر.

قال تلميـذ آخـر: ليتـك تعلم شـيخنا مـاذا يقـول لنـا تلاميـذ مدرسـة المتشـابه إن ذكرنـا لهم هـذا ومثلـه.. إنهم يعتبرون هذا من أشد أنواع البدع، وقد نقلـوا لنـا عن زعيمهم الذين يطلقون عليـه لقب شـيخ الإسـلام قول في المسلك الذي ذكرته لنـا: (..فتـبين أن قـول أهـل التفـويض الـذين يزعمـون أنهم متبعـون للسـنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد)(1)

بل إنهم ينقلون عنه أنه سمى أهلَ التفـويض بأهـل التجهيـل، فقـال: (..أمـا أهـل التجهيـل فهم كثـير من المنتسـبين إلى السـنة واتبـاع السـلف يقولـون إن الرسول لم يعرف معانيَ ما أنزل الله إليـه من آيـات

1) درء التعارض 1/205

الصفات..ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك...)[1]

وقد نقلوا لنا عن بعض المعاصرين، ويطلقون عليه ابن عثيمين قوله: (التفويض من شر أقوال أهل البدع.. وإذا تأملته وجدته تكذيباً للقرآن وتجهيلاً للرسول)[2]

قال الشيخ: من اتبع المتشابه في الله فسيقع في المتشابه في الدين جميعا.. فيؤول سماحته إلى عنف.. ويؤول أدبه إلى خشونة.. ويووؤل لطفه إلى خشونة.. وهكذا..

فمن لم يستح من الله أن يشببه بخلقه، وأن يصنع له قالبا جسميا كيف يستحيي ألا يكفر الأمة أو يبدعها أو يرميها بكل ما تمليه عليه أحقاده من أصناف السباب.

قال تلميذ آخر: دعنا منهم يا شيخنا.. نحن ما جلسنا هذا المجلس إلا لنعرف ربنا، ونسلك سبيله، ولا يهمنا من سلك معنا، ومن لم يسلك.. ونحن واثقون فيك وفي ورعك، فبصرنا بطريق الخواص الراسخين في العلم.

قال الشيخ: لقد وضع الراسخون في العلم للتعامل مع المتشابه أربعة ضوابط.

قال التلميذ: فما **أولها**؟

قال الشيخ: أولها أن من تعظيم القرآن الكريم والسنة المطهرة واحترام دلالاتهما ألا يصرف اللفظ عن ظاهره فيهما إلا عند قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال ممتنع[3].

1) مجموع الفتاوى 5/34

2) المحاضرات السنية 1/67

وكمثال على ذلك قول النبي ﷺ: (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن)(1)، وقد قال الغزالي تعقيبا على هذا الحديث: (حمله على الظاهر غير ممكن...إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فَعُلِمَ أنها كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع، وكنِّي بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً في تفهم تمام الاقتدار)(2)

قال التلميذ: فما **الثاني**؟

قال الشيخ: من خلال المحكمات الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة عرفنا أن الله عز وجل ليس في جهة أو حيز، ولا يجوز عليه التركيب ولا التجسيم ولا التشبيه، ولاتقوم به الحوادث، فإذا وردت النصوص المتشابهة معارضةً لهذه العقائد نأخذ بالمحكم، فنؤول الظواهر إما إجمالاً ونفوض تفصيلها إلى لله، وإما تفصيلاً بتعيين المراد الموافق للسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم(3).

قال التلميذ: فما **الثالث**؟

قال الشيخ: لا يصح أن نصرف النص المتشابه عن دلالته الظاهرة إلا وفق أساليب اللغة وعرف الاستعمال جارياً على ما يقتضيه لسان العرب وما يفهمونه في خطاباتها(4).

قال التلميذ: فهلا وضحت لي هذا بمثال؟

---

3) انظر أساس التقديس، الرازي 182.

1) صحيح مسلم 4/ 2045(2654)

2) انظر قواعد العقائد، مع إحياء علوم الدين 1/102.

3) انظر المواقف، الإيجي 27.

4) انظر فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

قال الشيخ: عندما نبحث عن معنى قوله تعالى مثلا: { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُون } [سورة القلم:42] في اللسان العربي، فإننا نجد العرب يفسرون ذلك بالشدة، وقد روي أن ابن عباس سئل عن هذه الآية، فقال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر، فإنه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر:

سن لنا قومك ضرب الأعناق.. وقامت الحرب بنا على ساق [1]

قال التلميذ: صدقت سيدنا.. وأنا أحفظ من مثل هذا الكثير، فالعرب تعبر عن كل كرب وشدة بذلك، ومن ذلك قول الشاعر:

كشفت لكم عن ساقها... وبدا من الشر الصراح

وقال آخر:

قد شمرت عن ساقها فشدوا... وجدت الحرب بكم فجدوا

قال تلميذ آخر: ليتك حضرت معنا سيدي إلى مدرسة المتشابه، فإنهم يفسرونها تفسيرا خطيرا.

قال الشيخ: دعنا منهم.. فمن وقع في المتشابه وقع في التشبيه لا محالة..

قال التلميذ: حدثتنا عن ا لضابط الثالث، فحدثنا عن **الرابع** ؟

قال الشيخ: الرابع هو أنه لا ينبغي لمن صرف المتشابه عن ظاهره أن يجزم بأن مراد الله هو ذلك المراد، أدبا مع الله، وتعظيما لمراده، وخاصة إذا احتمل وجوها في اللسان العربي..

1) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (30/ 613).

قال التلميذ: فهلا ضربت لنا مثالا على ذلك.

قال الشيخ: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [سورة طه:5]، فإن المحكم يقتضي ألا نفسر الاستواء بالجلوس والقعود كما يفعل المتبعين للمتشابه، لأن ذلك حد لله، ووصف له بصفات الحوادث.. أما تعيين المراد منه، فيحتمل وجوها عديدة، وقد قال بعض علمائنا في ذلك: (لا يمتنع منا حمل الاستواء على القهر والغلبة، وذلك شائع في اللغة... ولا يبعد حمل الاستواء على قصد الإله إلى أمر في العرش)[1] وغير ذلك من الوجوه.

بعد أن انتهى الشيخ من حديثه عن ضوابط التعامل مع المتشابه أخذ التلاميذ يسألونه عن أسماء الله الحسنى، فيشرحها لهم شرحا عجيبا، ويربطها بحقائق الكون التي نراها.. حتى اعتقدت جازما بعد خروجي من مدرسته أن المجال الوحيد المتاح لعقولنا وقلوبنا للتعرف على الله هي أسماؤه الحسنى.. فبقدر ما نستغرق فيها بقدر ما نرتبط بالله، وبشرع الله، وبالتحقق بدين الله.. فأسماء الله مدرسة كاملة في العقيدة، وفي حقائق الوجود، وتفسير ما يحصل فيه.. وهي كذلك مدرسة في التربية والسلوك والأخلاق والروحانية.

المتشابه:

بعد أن خرجت من مدرسة المحكم سولت لي نفسي أن أرى مدرسة المتشابه، وأرى العلوم التي تدرس فيها.. وليتني ما فعلت.. فقد كان للطروحات التي طرحت فيها آثار سلبية خطيرة على نفسي أزالت كثيرا من معاني التقديس والتعظيم التي كنت أستشعرها من خلال القراءة الفطرية للقرآن

---

1) انظر الإرشاد 41.

الكريم.. ولم أتخلص من تلك الرواسب إلا بعد جهد جهيد.

كانت المدرسة كبيرة مزخرفة.. وكان لمشايخها من الأبهة والسلطان ما لم يكن لمشايخ مدرسة المحكم.. فقد كان كل واحد منهم مستو على عرشه، وكأنه ملك من الملوك يأمر وينهى..

جلست في أحد المجالس، وقد تعجبت إذ سئل الشيخ بمجرد جلوسي عن تفسير قوله تعالى { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُون } [سورة القلم:42]

فاعتدل في جلسته فرحا مسرورا، وقال: أحسنت بسؤالك هذا.. فبهذه الآية يمكننا أن نفرق بين أهل السنة وأهل البدعة.. وبين أهل النجاة وأهل الضلالة.. فقد ورد حديث صحيح في البخاري يؤكد هذا، ويدل عليه.. فأبشروا.. فهذا الحديث بشارة لأهل السنة، وإنذار للمبتدعة.

قال التلميذ: فهلا حدثتنا شيخنا بهذا الحديث.

قال الشيخ: أجل.. وأنا أرويه مسندا من شيخي إلى البخاري إلى رسول الله ﷺ..

قال ذلك، ثم أخذ يردد سندا طويلا، استغرق وقتا كثيرا.. وبعد تعديد عشرات الأسماء والألقاب والكنى والبلدان وصلنا إلى آخر راو في سلسلة السند الطويل.. وقد تعجبت من ذاكرته العجيبة التي حفظت كل تلك الأسماء.

بعد الراوي الأخير مباشرة بدأ الحديث عن رسول الله ﷺ..

لا أستطيع أن أذكر لكم أن الحديث لرسول الله ﷺ.. فرسول الله ﷺ أكثر تعظيما لربه من أن يقول

هذا.. ولهذا سأذكره باعتباره الرواية التي سمعتها..

كان الشيخ يتفاعل مع كل كلمة يقولها، ويمطط فيها حتى صرنا، وكأننا – وأستغفر الله – نرى الله تعالى وتقدس بأعيننا المجردة بلباسه وتاجه وساقه..

قال الشيخ، وهو يسرد الحديث(1)، وكأنه يقص قصة من قصص ألف ليلة وليلة: في ذلك اليوم من أيام القيامة يؤذن مؤذن يسمعه الخلائق جميعا: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب؛ فيدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقول: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا رب فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار.

ثم يدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون؟ فيقولون. عطشنا يا رب فاسقنا قال: فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار.

نظر الشيخ إلى التلاميذ، وهو يقول: الحمد لله.. ها قد تخلصنا من اليهود والنصارى.. ولم يبق في ذلك الموقف إلا نحن.. لكن لا تستعجلوا لا تتصوروا أن كل من بقي ناج.. الناجي هو من يعتقد ما نعتقد فقط..

اسمعوا لباقي الحديث.. يقول الحديث: حتى إذا لم

---

1) الحديث وارد في الصحيحين، وقد نقلته بتصرف، ولم أنسبه لرسول الله ﷺ.

يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيأتيهم الجبار في صورة غير الصورة التي رأوها أول مرة قال: فما تنتظرون: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم. فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا - مرتين أو ثلاثا؛ حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب - فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم. فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد نفاقا ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة فقال: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا.

وقف الشيخ بحماسه، وراح يرفع يده بقوة، وهو يقول: أرأيتم قيمة معرفة صفة الساق، فكل من جحد بها لا يستطيع أن يسجد يوم القيامة.. وكل من أنكر أن لله صورة ووجها وساقا وضرسا لا يستطيع أن يسجد.. وكل من أنكر أن يأتي الله أو يذهب أو يجري أو يهرول لا يستطيع أن يسجد.. وكل من أنكر أن الله يتكلم ويضحك ويستلقي لا يستطيع أن يسجد..

وبقي يردد ذلك.. ويخوف تلاميذه بذلك.. وقد كانت الصور تتوارد على خيالي، وهو يلصقها بالله.. حتى صار الله.. تعالى وتقدس.. وكأنه جرم من الأجرام الضخمة.. وليس من فرق بينه وبينها إلا أننا نعرف هيئة تلك الأجرام.. ولا نعرف بدقة هيئة الله.

لكن الشيخ بقي يوضح ويزيد الأمر تفصيلا إلى أن أصبحنا وكأننا نرى الله بأعيننا المجردة.

قال له أحد التلاميذ: كشف الساق يا سيدنا يدل على الله تعالى يلبس لباسا؟

قال الشيخ: أحسنت بني في استنتاجك.. فقد دلت عليه الرواية، فقد روى سلفنا الصالح في أحاديث كثيرة متواترة عن أصحابنا عن رسول الله ﷺ أنه (رأى ربه عز وجل في النوم في صورة شاب ذي وفرة قدماه في الخضر عليه نعلان من ذهب على وجهه فراش من ذهب)(1)

قال التلميذ: ولكن هذا الحديث يدل على أنه رآه في النوم.. ولا يمكن أن نرى في النوم الحقائق بدقة.

قال الشيخ: لقد رد سلفنا الصالح على هذا الاعتراض من وجهين، أما الأول، فهو أن الذي رأى هو رسول الله ﷺ.. وليس أحدا آخر، ورؤيا الأنبياء صدق.. وأما الثاني، فقد روي من طرق متعددة من أصحابنا أن الرؤية كانت في اليقظة.. فقد روى الطبراني في (السنة) عن ابن عباس قال: رأى محمد ﷺ ربه في صورة شاب أمرد، وبه قال ابن جريج عن صفوان بن سليم عن عائشة قالت: رأى النبي ﷺ ربه على صورة شاب جالس على كرسي رجله في خضرة من نور يتلألأ..

وروى الطبراني في المعجم الأوسط عن عكرمة، قال: سئل ابن عباس: هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل ؟ قال: نعم، رآه في صورة شاب بين شعر من لؤلؤ، كأنّ قدمية في خضرة(2).

وروى أبو يعلى الفراء عن ابن عباس ما يؤكد صحة حديثه ذكره أبو بكر بن أبي داود في كتاب السنة

1) كتاب رؤية الله للدارقطني ص 90 ط. مكتبة القرآن / القاهرة.

2) المعجم الأوسط للطبراني ج3 ص 335 رقم 4767.

بإسناده عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ قال: نعم، قال: كيف رآه؟ قال: (في صورة شاب دونه ستر من لؤلؤ كأنّ قدميه في خضرة)، فقلت أنا لابن عباس: أليس هو من يقول: { لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير } [سورة الأنعام:103] ؟ قال: لا أم لك، ذلك نوره الذي هو نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء (1).

وروى أبو بكر الخلال عن عكرمة، عن ابن عباس أنّ النبي ﷺ رأى ربه جل ثناؤه جعداً قططاً أمرد في حلة حمراء(2).

بقي الشيخ يورد الكثير من النصوص التي تدل على هذا، ويستشهد لذلك من كلام سلفه الصالح ما يملأ القلوب رهبة من مخالفتها..

بعد أن انتهى من ذلك، قال بعض التلاميذ: لقد زرت البارحة مدرسة المحكم.. وقد رأيتهم ينكرون مثل هذا، ويردون عليه ردا شديدا.

غضب الشيخ، وقال: ألم أكن نهيتكم عن زيارة أولئك المبتدعة الضالين الجاحدين؟

قال التلميذ: أنا لم أذهب إلا لأتجسس لك عن أخبارهم.. ومعاذ الله أن أترك النبع الصافي الذي تسقينا منه، وأذهب إلى تلك المنابع الكدرة المختلطة بالفلسفة والكلام والرفض..

قال الشيخ: ما دمت قلت هذا.. فسأذكر لك حديثا عن بعض سلفنا الصالح يفيدك في إقامة الحجة عليهم..

---

1) . إبطال التأويلات لأخبار الصفات ج1 ص 148 رقم 151

2) إبطال التأويلات لأخبار الصفات ج1 ص 133 رقم 122.

لقد حدثني بعض مشايخنا بسنده عن حماد بن زيد قال: مثل الجهمية مثل رجل قيل له: في دارك نخلة؟ قال: نعم، قيل: فلها خوص؟ قال: لا، قيل: فلها سعف؟ قال: لا، قيل: فلها كرب؟ قال: لا، قيل: فلها جذع؟ قال: لا، قيل: فلها أصل؟ قال: لا، قيل: فلا نخلة في دارك.. وهؤلاء الجهمية قيل لهم: لكم رب يتكلم؟ قالوا: لا، قيل: فله يد؟ قالوا: لا، قيل: فله قدم؟ قالوا: لا، قيل: له إصبع؟ قالوا: لا، قيل: فلا رب لكم)(3)

خرجت من مدرسة المتشابه، وأنا ممتلئ بالشبهات، ولم أستطع أن أطهر قلبي من درن التشبيه إلا بعد أن التجأت إلى ربي الذي أرشدني إلى العودة لمدرسة المحكم، وفيها استطعت بفضل الله أن أتخلص من كل الشبهات التي زرعها في نفسي أتباع المتشابهات.

---

3) إبطال التأويلات (ص: 55)

التفعيل.. والتعطيل

لو قمنا بعملية حسابية بسيطة للآيات القرآنية التي يمكن تفعيلها في حياتنا – من وجهة النظر السلفية التراثية – فإننا سنجد ما لا يقل عن واحد في المائة من القرآن الكريم جميعا مما يمكن تطبيقه في الحياة.. وحتى هذا الواحد يمكن أن يكون مخصصا ومقيدا ومؤولا ومحدودا..

وحتى لا يعتبر قولنا هذا دعوى.. فإنا نذكر بأن نصف القرآن تقريبا من القصص.. وهذه لم يكتف السلفيون والتراثيون بتعطيها عن العمل في حياتنا فقط بحجة أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا، وإنما شوهت وغيرت وبدلت تبديلا عظيما..

وهكذا بالنسبة للآيات الكونية في القرآن الكريم.. والتي أسيء فهمها، وحرم التيار السلفي المتطرف من النظر إليها وفق معطيات العلم.. وجعل البحث فيها محصورا في تلك العقول الفارغة التي لا تزال تتناول معارفها من تراث بني أكثره على الخرافة.

أما آيات الأحكام.. والتي أنزلت لتنفذ في واقع الحياة.. فقد عرض لها ما عرض لغيرها من القول بالنسخ والتخصيص والتقييد.. ولذلك لا يحق لأحد من الناس أن يستفيد من الرؤى القرآنية في هذا الجانب، بل يحذر من التدبر من لا يميز الناسخ من المنسوخ، والعام من الخاص، والمطلق من المقيد.

وهكذا بالنسبة لآيات التسامح التي نسخت جميعا بآية السيف..

وهكذا بالنسبة لآية رعاية أموال اليتامى، وعدم أكلها، فقد نسخت بحديث التعصيب الذي يجيز لابن العم مهما بعد أن يتقاسم التركة مع البنات مهما

قربن.. مع أن القرآن الكريم لم يقل ذلك.. والفطـرة السليمة لا تقول ذلك.. والعدالة التي برمجها الله في عقول عباده لا تقول ذلك..

وهكذا لم يبق من القـرآن الكـريم مفعلا في حياتنـا إلا ما يسمونه آية السيف.. ويؤكدون ذلك بأن رسـول الله ﷺ قال: كفى بالسيف شافيا.. ونصرت بالرعب..

ولو شئنا أن نأتي بالأمثلة المفصـلة على هـذا، فلن ننتهي..

فـإذا حسـبنا كـل تلـك الإلغـاءات والتحديـدات والتقييدات.. فإننا نجدها كل القرآن تقريبا.. ولـذلك لا حرج علينا إذا قلنا بأننا نعطـل القـرآن، لأنـه يسـتحيل أن يفعل القرآن من يعطل ولو آية واحدة من آياته.

وسـأقص عليكم هنـا قصـة بسـيطة ترمـز إلى كلتـا الرؤيتين:

الرؤية التي أتبناهـا بفضـل اللـه، وأدعـو إلى تبنيهـا، وهي التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: 1]

والرؤية التي نشرها الشيطان في هذه الأمة، والتي أشـار إليهـا قولـه تعـالى: ﴿ وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَا تَسْـمَعُوا لِهَـذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَـوْا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُـونَ ﴾ [فصـلت: 26]، أي: تواصـوا فيمـا بينهم ألا يطيعـوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره(1).

وأشـار إليهـا قولـه تعـالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْـرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُـوَ لَـهُ قَـرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُـدُّونَهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَـدُونَ ﴾ [الزخرف: 36، 37]

التفعيل:

---
1) تفسير ابن كثير (7/ 174)

في المدرسة الأولى، البسيطة المتواضعة صاحبة المرافق المحدودة، والتلاميذ القليلين.. وجدت شيخا يشبه شيخ الإشارة، وشيخ العبرة، وشيخ المحكم يخاطب تلاميذه بقوله: لقد طرحتم علي البارحة شبها يثيرها زعماء التعطيل.. وقد طلبت منكم أن تجمعوها.. وأن تجمعوا الآيات التي قاموا بتعطيلها، لأبين لكم وجوه تفعيلها.. فهل فعلتم؟

قال تلميذ من تلاميذه: أجل.. وقد وجدنا أنها تكاد تشمل القرآن جميعا.. فما من آية إلا نجدهم قد ربطوها بأهل الكتاب، أو بشرع من قبلنا، أو ربطوها بسبب نزول.. أو ذكروا أنها منسوخة.. أو أنها مخصصة.. أو أنها مقيدة.. أو أن القصد منها التشديد وليس الحقيقة.. وهكذا..

قال الشيخ: أعلم ذلك يا بني.. ولولا ذلك لأقمنا الكتاب كما أمر الله، ولما حصل في الأمة ما حصل، بل لأكلنا من فوقنا ومن تحت أرجلنا.. لقد قال الله تعالى يحذرنا من ذلك: { وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } [المائدة: 66]

ضحك أحد التلاميذ، وقال: هم يعطلون هذه الآية أيضا.. فقد ذكروا أنها في أهل الكتاب، وأنهم هم الذين فرطوا في التوراة والأنجيل.. أما نحن فعلى العكس منهم تماما.

قال الشيخ: فهل أكلت هذه الأمة من فوقها ومن تحت أرجلها.. أم أن المصائب والاستبداد والجوع والفقر والاستعمار كلها حلت بها في تاريخها كله؟

قال التلميذ: يمكننا أن نرجع إلى كتب التاريخ في هذا.. وقد أخبرتنا بأن المصائب لم تبرح تنزل بهذه

الأمة.. وأولها البأس الشديد الذي حل بينها على مدار التاريخ جميعا.

قال الشيخ: فهل ترى أن الله سبحانه وتعالى الحكم العدل يجعل قانونا خاصا بمن فرط في كتابه، فيطبقه على قوم، ويعفو عن آخرين؟ أم ترى أن التوراة والإنجيل أكثر حرمة عند الله من القرآن الكريم، ولذلك يعاقب من فرط فيهما، ولا يعاقب من فرط فيه؟

قال التلميذ: هم يقولون بأن هذه الأمة مرحومة.. وأنها خير أمة أخرجت للناس.

قال الشيخ: أما كونها مرحومة.. فذلك راجع إلى أعمالها.. وأما كونها فضلت على سائر الأمم.. فالله تعالى أخبر بأنه فضل بني إسرائيل كذلك.. أي اختارهم دون الخلق لتحمل المسؤولية.. فمن وفى فله الجزاء، ومن فرط فله العقوبة..

لقد ذكر الله قانون ذلك، فقال: { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا } [النساء: 123، 124]

قال تلميذ آخر: لقد ذكرتني يا شيخنا بتفسيرهم للسورة التي نرددها كل يوم.. والتي ورد فيها أصناف الناس.. فتراهم إذا قرأوا قوله تعالى { الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاتحة: 7] خصوها بأنفسهم.. وإذا قرأوا { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } [الفاتحة: 7] قسموها شطرين، فشطر الغضب أرسلوه لليهود.. وشطر الضلال أرسلوه للنصاري..

قال تلميذ آخر: أجل سيدي.. وقد كنت أود أن

أسألك عن هذا، فقد قرأت في تفسير ابن كثير قوله: (طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم.. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب)(1)

قال الشيخ: هذا من تعطيل القرآن.. فالله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن الكريم أوصاف المغضوب عليهم.. وأوصاف الضالين.. فمن انطبقت عليه.. فهو منهم كان يهوديا أو نصرانيا أو مسلما.. فالله لا يفرق بين عباده.

قال التلميذ: ولكن ابن كثير استدل لذلك من القرآن الكريم، فالله تعالى قال عن اليهود: { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } [المائدة: 60]

وقال عن النصارى: { قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } [المائدة: 77]

قال الشيخ: فهل ذكر الله تعالى الأعمال التي قام بها هؤلاء حتى استحقوا هذه الأوصاف؟

قال التلميذ: أجل.. والقرآن الكريم ممتلئ بذكر

1) تفسير ابن كثير (ج1/ 141).

أفعالهم..

قال الشيخ: هو لم يذكرها لأجلهم.. إنما ذكرها لأجلكم.. هو يحذركم إن سلكتم سلوكهم في انحرافهم عن كتابهم وأنبيائهم أن ينزل بكم غضب الله، وتضلوا عن الطريق المستقيم.

قال تلميذ آخر: ائذن لي يا شيخ أن أحدثك بآية كنت سمعت تفسيرها البارحة في مدرسة التعطيل، وقد سمعتهم يعتبرونها معفاة من العمل.. وأنه ليس علينا سوى قراءتها، والاستفادة من الحسنات التي ننالها من خلال ذلك.. وقد حاولت جهدي أن أفك تعطليها، وأرى كيف تفعل حياتنا، فلم أطق.

قال الشيخ: تفضل.. اذكرها.. فيستحيل على الكتاب الذي { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ } [فصلت: 42] أن يعطل حرف من حروفه.

قال التلميذ: هي قوله تعالى: { وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا } [النساء: 15]، فقد نقلوا اتفاق المفسرين على أنها معطلة عن العمل (1).

1) نقل ابن كثير القول بنسخها عن ابن عباس وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وعطاء الخراساني، وأبي صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والضحاك، ثم علق على ذلك بقوله: (منسوخة. وهو أمر متفق عليه)، انظر: تفسير ابن كثير (2/ـ 233)، لكن أبي مسلم الأصفهاني – وهو من القائلين بعدم النسخ – خالف ذلك، فذكر أن المراد بقوله: واللاتي يأتين الفاحشة السحاقات، وحدهن الحبس إلى الموت وبقوله: والذان يأتيانها منكم: أهل اللواط، وحدهما الأذى بالقول والفعل، واحتج لذلك – كما يذكر الرازي – بوجوه، منها:

الأول: أن قوله: واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم مخصوص بالنسوان، وقوله: والذان يأتيانها منكم مخصوص بالرجال، لأن قوله: والذان تثنية الذكور.

قال الشيخ: ما دامت معطلة.. فكيف أمرنا بإقامة القرآن الكريم جميعا.. لقد قال الله تعالى: { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام: 106]، ولم يقل اتبع بعض ما يوحى إليك من ربك.

قال التلميذ: فكيف ترى تفعيل الآية الكريمة في واقعنا؟

قال الشيخ: أخبرني أولا.. كيف يعطلونها؟

قال التلميذ: هم لا يقولون بنسخها، ولكنهم يذكرون أنها مرحلة من المراحل التي مرت بها الحدود المرتبطة بالزنا.. وقد قال السعدي في تفسيرها: (وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغياة إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك حتى جعل الله لهن سبيلا وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن)(1)

قال الشيخ: كل ذلك سواء.. التعطيل لا يكون بالقول بالنسخ فقط.. مجرد إخراج الآية الكريمة عن دورها العملي في واقع الحياة تعطيل.

قال التلميذ: فكيف ترى تفعيلها؟

قال الشيخ: هذه الآيات مع مجموعة أخرى تحل مشكلة الفواحش في المجتمع.. ولو أنها فعلت جميعا وفق ما ذكر القرآن الكريم لزالت الفاحشة، أو كادت.

الثاني: هو أن على هذا التقدير لا يحتاج إلى التزام النسخ في شيء من الآيات، بل يكون حكم كل واحدة منها باقيا مقررا، وعلى التقدير الذي ذكرتم يحتاج إلى التزام النسخ، فكان هذا القول أولى. (انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب (9/ 528)

1) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 171).

لقد قمت بإحصائها، ووجدت من خلالها ذلك الانتظام العجيب في المعالجة القرآنية لهذه المشكلة الخطيرة(2).. وقد وجدت بعد الإحصاء تسع آيات كريمة.

قال التلميذ: فما **الآية الأولى**؟ وماذا تعالج؟

قال الشيخ: الآية الأولى هي قوله تعالى: { لزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النور: 2]

وهي تضع الحد الشرعي للزانية والزاني اذا ضبطا في حالة تلبس، فالعقوبة مائة جلدة أمام الناس.. حتى يرتدع الناس جميعا.

قال التلميذ: ولكن لماذا كان ذلك أمام الناس؟

قال الشيخ: لأن هؤلاء لم يتستروا.. بل راحوا يقومون بالفاحشة أمام الناس.. لدرجة أنه لم يرهم شخص واحد أو شخصين، بل أربعة أشخاص وكلهم بالغون وعدول وأصحاب حرمة في المجتمع.. فتمكن هؤلاء الأربع مع عدالتهم من رؤيتهم يدل على أن هناك كثيرين قد رأوهم.. ولهذا كانت العقوبة أمام الناس جميعا لترتبط صورة العقوبة أمام صورة الذنب، فيرتدع المجتمع.

قال التلميذ: فما **الآية الثانية**؟ وماذا تعالج؟

قال الشيخ: هي نفسها الآية التي سألت عنها، وهي

2) رجعت في تفسير هذه الآية بحسب هذه الرؤية إلى مقال علمي ممتاز بعنوان: رجم الزاني المحصن ليس من القرآن، موقع أهل القرآن، على الرابط التالي:

(http://www.ahl-alquran.com/arabic/document.php?main_id=1178)

قولـه تعـالى: { وَاللَّاتِي يَـأْتِينَ الْفَاحِشَـةَ مِنْ نِسَـائِكُمْ فَاسْتَشْـــهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَـــةً مِنْكُمْ فَـــإِنْ شَـــهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا } [النساء: 15]

وهي تتحدث عن امرأة يشاع بأنهـا سـيئة السـلوك، وتتكـاثر الشـواهد علي سـوء سـمعتها في مجتمعهـا.. وفي هـذه الحالـة لابـد من عقـاب مناسـب لهـا بعـد الاشـهاد عليهـا بأربعـة شـهود بأنهـا من اللاتي يـأتين الفاحشة بدون أن يتم ضبطها.. وهنا تعـاقب بـالحبس في البيت، ومنعها من الخروج إلى أن تموت أو تتزوج أوتتوب..

انظـروا كيـف تـأمر الآيـة الكريمـة بالاستشـهاد في مثل هذه الحالة حتى يخلص المجتمع من كل أســباب الفواحش..

قال التلميذ: ولكن لم عـوقبت المـرأة، ولم يعـاقب الرجل سيء السمعة؟

قال الشيخ: معاذ الله أن يفرق الله العـدل الـرحيم بين عباده، فيعـاقب المـرأة ولا يعـاقب الرجـل.. لقـد نص الله تعالى على عقوبة الرجـل، فقـال: { وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَـا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَـا فَـإِنْ تَابَـا وَأَصْـلَحَا فَأَعْرِضُـوا عَنْهُمَـــا إِنَّ اللَّهَ كَـــانَ تَوَّابًـــا رَحِيمًا } [النســـاء: 16]، والآذية تشمل كل عقوبة يمكنها أن تـردع الرجـل عن ارتكاب الفواحش.

قال التليمذ: فلم حبسـت النسـاء في الـبيوت، ولم يحبس الرجال؟

قال الشيخ: أنتم تعلمون أنه لولا كون النساء سبب الإثـارة والفتنـة لمـا تجـرأ الرجـال على الفاحشـة.. فالعفيفة الطاهرة يسـتحيل أن يأتيهـا رجـل برضـاها.. فإن فعل فقد شرع الله له أخطر عقوبة، وهي عقوبة

المحاربة كما سنرى.

قال التلميذ: فما **الآية الثالثة**؟

قال الشيخ: قوله تعالى: { وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النساء: 25]

وفيها يخاطب الله تعالى المؤمنين الفقراء الذين لايستطيعون زواج الحرائر لغلاء مهورهم وغيره من الأسباب أن يتزوجوا من الفتيات المؤمنات من ماملكت الايمان، فهذه المؤمنة الجارية إذا تزوجت، فوقعت في جريمة الزنا تكون عقوبتها خمسون جلدة أي نصف ما على المتزوجات الحرائر من العذاب اذا وقعن في الزنا.

قال التلميذ: لقد ظللت دهرا محتارا في هذه الآية.. فكيف تكون عقوبتها نصف الثيب مع أن عقوبتها الرجم.. فهل يعقل أن يوجد نصف رجم؟.. واذا كانت المرأة الحرة المحصنة تموت بحد الرجم، فهل يوجد نصف موت؟

ابتسم الشيخ، وقال: ها أنت يا بني تفعل هذه الآية.. وتنفي تعطيلها؟

قال التلميذ: لم أفهم..

قال الشيخ: هذه الآية الكريمة أكبر رد على من وضعوا حد الرجم الذي هو تعطيل لعموم عقوبة

الزناة الواردة في أول سورة النور.. وكأن الله تعالى نبه عقولنا من خلاله إلى أن هذا الحد مناف لتشريعه.

قال التلميذ: ولكنهم رووا أنه قد نزل في ذلك قرآن.. وقد رفع.. أو أكلته الداجن..

قال الشيخ: فهلا قرأت لي الآية التي زعموا رفعها.. وهل تتناسب مع الإعجاز القرآني الذي ورد التحدي به.. وهل رويت متواترة؟

قال التلميذ: معاذ الله.. فالقرآن أعظم بكثير..

قال الشيخ: لن أعيد لكم ما ذكرته سابقا.. فالله تعالى أخبرنا أنه لا مبدل لكلماته، فقال: { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الأنعام: 115]، وقال: { وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا } [الكهف: 27]

وأخبرنا أنه { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت: 42]

وأخبرنا أنه لا يحوي على أي عوج، فقال: { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [الزمر: 27، 28]

قال التلميذ: ولكن ماذا تفعل بحديث ماعز والغامدية؟

قال الشيخ: هذه الأحاديث نفسها تدل على التناقض الذي يقع فيه القائلون بالرجم.

قال التلميذ: كيف ذلك؟

قال الشيخ: ألا ترون أنهم يستدلون بحديث المخزومية التي سرقت، وطلبت قريش ألا يقام

عليها الحد، لكن رسول الله ﷺ قام فخطب فقال: (يا أيها الناس إنما ضَلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)[1]؟

قال التلميذ: بلى.. ولكن ما وجه الاستدلال بهذا؟

قال الشيخ: فقد ذكروا في حديث الغامدية أن رسول الله ﷺ كان يردها على حين.. ولم يكن حريصا على حضورها ليقيم الحد عليها.. ولو أنها لم تحضر لما طلبها.. أفتراه يتشدد في حدود الله مع المخزومية ويتساهل مع الغامدية.

قال التلميذ: ولكنهم رووا في ذلك أحاديث أخرى..

قال الشيخ: لقد أثبت لكم بالأدلة الكثيرة أن كل حديث يخالف القرآن الكريم لا عبرة به[2].. وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ ذلك.. ولكن المعطلين يأبون إلا أن يضربوا القرآن بالحديث.. ويضربوا الحديث بالقياس وآراء الرجال.. حتى لا يخلص لنا من الدين إلا أقوالهم المخلوطة بأهوائهم.

قال التلميذ: فما هي الآية التي تتعارض مع تلك الأحاديث؟

قال الشيخ: هي الآية الأولى التي بدأنها بها.. وهي قوله تعالى: { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ } [النور: 2] ألا ترى أن الله سبحانه عم بها كل زان، ولم يستثن من هذا الحكم البكر أو الثيب، ولو كان مستثنى لذكره.. فالقرآن الكريم يذكر التفاصيل في أقل من هذ الحد.. فكيف لا

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) ذكرنا الأدلة المفصلة على هذا في كتاب (سنة بلا مذاهب)

يذكرها في هذا، والعقوبة فيه أشد؟

قال التلميذ: ألا تذكر لنا مثالا على ذلك؟

قال الشيخ: الأمثلة أكثر من أن تعد أو تحصى.. فالقرآن يوضح الأمور ويفصلها حتى لا يقع الالتباس.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [هود: 1]

سكت قليلا يفكر، ثم قال: من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: { وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ } [النساء: 23] انظروا كيف فصل الآية ووضحها حتى لا يقع الالتباس.

وهكذا في آيات كثيرة.. فلو أن عقاب البكر كان مختلفا عن عقاب الثيب، لوضحه ولنفى الغموض فيه.

قال التلميذ: فحدثنا عن **الآية الرابعة**.. وما المشكلة التي تعالجها؟

قال الشيخ: هي قوله تعالى في حق المطلقات: { لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ } [الطلاق: 1]، فالآية الكريمة تنص على أن من حق المطلقة في فترة العدة أن تظل في بيت الزوجية، ولكنها تفقد هذا الحق اذا وقعت في الزنا، وحينئذ يكون من حق زوجها أن يطردها، ولكن بشرط ان تكون جريمة الزنا مثبتة حتى لا يتاح لزوجها أن يتجنى عليها بالباطل.

صاح بعض التلاميذ: الحمد لله.. لقد فتح الله علي في هذه الآية ما يؤكد قولك في حكم الرجم.

قال الشيخ: ما شاء الله.. هات.. اذكر لنا ما فتح

الله عليك به.

قال التلميذ: لقد وصف الله تعالى الفاحشة في الآية الكريمة بكونها (فاحشة مبينة) أي مثبتة، ضمانا لعدم الافتراء بلا دليل.. ومع ذلك لم ينص على الرجم.. بل اعتبر عقوبتها الطرد بالإضافة إلى العقوبة الأساسية المحكمة، وهي مائة جلدة.

قال الشيخ: بورك فيك يا بني.. وهي تشير إلى ذلك كما ذكرت.

قال التلميذ: فحدثنا عن **الآية الخامسة**.. وما المشكلة التي تعالجها؟

قال الشيخ: هي قوله تعالى في ذكر عقوبة المطلقة إذا وقعت في الزنا بعد اتمام الطلاق: { وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ } [النساء: 19]، وهي تعطي الحق للزوج أن يمنع من طلقها عن الزواج إلا أن تدفع له بعض ما أعطاه لها من الصداق بشرط أن تكون جريمة الزنا في حقها مثبتة بالدليل.

قال التلميذ: فحدثنا عن **الآية السادسة**.. وما المشكلة التي تعالجها؟

قال الشيخ: هي قوله تعالى: { الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [النور: 3]، وهي تشير إلى عقوبة اجتماعية أخرى تساهم في الردع عن الزنا.. فالمرأة الزانية أي التي لا تتوب عن الزنا لا يتزوجها المؤمن.. ومثلها الزاني يمنع من الزواج من المؤمنة.

قال التلميذ: فحدثنا عن **الآية السابعة**.. وما المشكلة التي تعالجها؟

قال الشيخ: هي الآيات الكريمة التي وردت في حق الزوج إذا شهد على زوجته بالفاحشة، ولم يكن معه شهود آخرون، وقد ذكر الله تعالى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بها في أربع آيات كريمة، وهي قوله تعالى: { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [النور: 6 - 9]

انظروا كيف ذكر الله كل هذه التفاصيل.. حتى صيغة الشهادة ذكرها.. فكيف ترون عدم ذكره للرجم، وهو أخطر منها جميعا؟

صاح تلميذ آخر: في هذه الآية أيضا سيدي ما يدل على عدم وجود حد الرجم.

قال الشيخ: فهاته.

قال التلميذ: لقد وصف الله تعالى عقوبة الزنا المرتبطة بهذه الحالة بأنها عذاب جسدي، فقال: { وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ } [النور: 8]، ولم يقل: (ويدرأ عنها الرجم).. والعذاب الذي ذكره هو نفسه الذي نص عليه في أول السورة.. هو مائة جلدة.

قال التلميذ: فحدثنا عن **الآية الثامنة**.. وما المشكلة التي تعالجها؟

قال الشيخ: هي الآيات الكريمة التي تهدد زوجات النبي ﷺ أنه في حال وقوع الفاحشة منهن فإن العقوبة في حقهن مضاعفة.. أي تكون العقوبة مائتي جلدة في تلك الجريمة، أي ضعف ما على النساء الحرائر، وفي المقابل فلهن في عمل الصالحات

ضعف ما على المحسنات، قال تعالى: { يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا } [الأحزاب: 30]

وهنا ترون أيضا أن العقوبة لا يمكن أبدا أن تكون رجما، لأنه إذا كانت عقوبة المتزوجات العاديات اللاتي ارتكبن الفاحشة الرجم حتى الموت، فكيف يضاعف ذلك؟

قال التلميذ: فحدثنا عن **الآية التاسعة**.. وما المشكلة التي تعالجها؟

قال الشيخ: هي الآية الكريمة التي نصت على حكم الحرابة والإفساد في الأرض، وهي قوله تعالى: { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة: 33]، وهي تنطبق على كل إفساد في الأرض، أو محاربة لله القيم التي نطق بها القرآن الكريم، وبينها رسول الله ﷺ..

ومن أرذل أنواع الإفساد الاغتصاب، والإكراه على الفاحشة، وعقوبة هؤلاء هي أشد عقوبة أنزلها الله تعالى، وذكرها في كتابه.

بعد أن انتهى الشيخ من استعراض الآيات المرتبطة بالفاحشة، وكيفية علاجها لكل الحالات.. أذن لهم في قليل من الراحة..

ثم اجتمعوا من جديد، وأذن لهم في السؤال.. فقال أحدهم: ائذن لنا يا شيخنا أن أسألك عن آية قد رأيت أهل التعطيل يحرفونها تحريفا شديدا.. نعم هم يقيمون ألفاظها غضة طريقة.. ولكن معناها غيروه

تماما..

قال الشيخ: فاقرأها علي.

قال التلميذ: هي قوله تعالى: { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الممتحنة: 8]

قال الشيخ: فكيف عطلوها؟

قال التلميذ: لقد ذكروا في تعطيلها أقوالا كثيرة، فمنهم من ذهب إلى أن هذا كان في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ.. ومنهم من ذهب إلى أنها مخصوصة في حلفاء النبي ﷺ ومن بينه وبينه عهد لم ينقضه.. ومنهم من ذهب إلى أنها خاصة بخزاعة وبني الحارث بن عبد مناف.. ومنهم من ذهب إلى أنها مخصوصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا.. ومنهم من ذهب إلى أنها خاصة بالنساء والصبيان؛ لأنهم ممن لا يقاتل، فأذن الله في برهم.

قال تلميذ آخر: وحتى الذين لم يقوموا بتعطيلها مطلقا عطلوها في مواضع كثيرة.. وقد حضرت البارحة مجلسا لأهل التعطيل ذكروا الآية، ثم قيدها بقيود كثيرة انحرفت بمعناها تماما.. ومن ذلك ما حدثوا به عن شيخ يقال له محمد بن صالح بن عثيمين، قال: لا يجوز أن يبدأ أهل الكتاب بالسلام؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك، ولأن في هذا إذلالا للمسلم حيث يبدأ بتعظيم غير المسلم، والمسلم أعلى مرتبة عند الله عز وجل؛ فلا ينبغي أن يذل المسلم نفسه في هذا..

وحدثوا عن آخر دعوته إلى اضطرار المخالفين إلى أضيق الطريق وجوانبها بحيث لا يمشون وسط الطريق، وذلك لإهانتهم وإظهار فضل المسلم

وتقديمه على غيره..

وهكــذا ظلــوا يتحــدثون إلى أن انقلب في ذهــني مفهوم الآيات تماما، فصارت وكأنهـا تأمرنـا بالتمـاس كل السبل الـتي تـؤذي المجـاورين لنـا من غـير أهـل ديننا.

قال الشيخ: الآية لا تحتـاج إلى أي شـرح أو تفصـيل أو مزاحمــة.. هي واضـحة تمامـا.. وقراءتهـا حكمهـا، وحكمها قراءتها.

قـال التلميـذ: ولكن أهـل التعطيـل يقـدمون غيرهـا عليها، فيعتبرونها متشابها، ويعتبرون المحكم هو قوله تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَـدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَـاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ } [الممتحنة: 1]

قــال الشــيخ: ولم بــتروا الآيــة، ولم يكملوهــا.. ألم يصف اللـه تعـالى هـؤلاء الـذين يحـرم علينـا مـودتهم بقولـه بعـدها: { يُخْرِجُـونَ الرَّسُـولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ } [الممتحنة: 1].. فالـذين تحـرم مـودتهم هم المعتدون فقط.. وهو ما نص عليه قوله تعـالى: { إِنَّمَــا يَنْهَــاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَــاتَلُوكُمْ فِي الــدِّينِ وَأَخْرَجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ وَظَـاهَرُوا عَلَى إِخْـرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَــــــــــوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [الممتحنة: 9]

قال ذلك، ثم أخذ يـرد بتفاصـيل كثـيرة دقيقـة على التعطيــل العظيم الــذي ارتكتبــه الأمــة في تاريخهــا وتراثها حول السماحة الإسلامية، والرحمـة الـتي جـاء بها رسـول اللـه ﷺ.. والـتي حـولت الإسـلام إلى دين عنـف وإرهـاب همـه التوسـع العسـكري، والسـيطرة على الآخـر، لا نشـر الـدين والقيم بالعقـل والمنطـق والحجة.

التعطيل:

بعـد أن خـرجت من مدرسـة التفعيـل المتواضـعة، وعرفت فيها بالأدلـة الكثـيرة أنـه لا يوجـد حـرف في القـرآن الكـريم إلا ولـه دلالتـه العظيمـة الـتي تمس جميـع جـوانب الحيـاة.. ذهبت إلى المدرسـة الثانيـة، والتي سمعتهم يتحدثون عنها كثيرا، ويصفونها بكونهـا مدرسة التعطيل..

وقـد كنت أتصـور أنهـا مدرسـة صـغيرة حقـيرة لا يرتادهـا إلا العـوام والجهلـة.. لكـني فـوجئت بكبرهـا وضخامتها وكثرة طلابها وكثرة أساتذتها وشهرتهم..

حين رأيتها عـرفت سـر قولـه تعـالى: { وَقَلِيـلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } [سبأ: 13]، فقد أخبر الله عن قلـة الشـاكرين الـذين يفعلـون نعم اللـه عليهم، ويستخدمونها استخداما صحيحا.. وأكبر نعم اللـه على عباده هي كلماته الهادية، فلا تفعل أي نعمـة من دون الاهتداء بهديها.

كانت المجـالس في المدرسـة كثـيرة.. وأمـام كـل حلقـة تلاميـذ كثـيرون.. ولـذلك لم أجـد بـدا من أن أجلس في أقربها إلي..

كان أمام الشيخ كتبا كثـيرة، وكـان كلمـا سـئل عن سـؤال أخـذ واحـدا من تلـك الكتب، وراح يشـرح من خلاله.

قال الشيخ: أظن أني قـد أجبتكم على هـذه الآيـة.. وذكـرت لكم قـول المفسـرين من السـلف الصـالح فيهـا.. وهي كافيـة لـردع أولئـك المبتدعـة من أهـل التفعيل والتزوير والتحوير.. الـذين أرادوا أن يخضـعوا القـرآن لأهـوائهم ناسـين أنـه لا يفهم القـرآن إلا المفسـرون الفطاحـل من أهـل التحقيـق والتـدقيق والتوثيق.

قال تلميذ من التلاميذ: فحدثنا عن قوله تعالى: { فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير } [سورة البقرة:109]

قال الشيخ: هذه الآية منسوخة.. وقد قال النيسابوري: (نسخ ما فيها من عفو وصفح بقوله تعالى: { قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ } [سورة التوبة: 29]؟

ثم صوب النظر إلي بشدة، وقال: لقد أمر المسلمون بهذا في بداية الإسلام عندما كانوا مستضعفين.. أما عندما قووا فلم يبق هناك مجال للعفو أو الصفح.

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُون } [سورة البقرة:139]؟

قال الشيخ: هذه الآية أيضا منسوخة، نسختها آية السيف(1).. فما حاجة المسلمين إلى محاجة خصومهم ومجادلتهم وحوارهم بعد أن أمدهم الله بقوة السيف؟ فكفى بالسيف شافيا، وكفى بالسيف محاورا.

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ وقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِين } [سورة البقرة:190]؟

قال الشيخ: هي مثل أخواتها منسوخة آية السيف(2)، وقد قال النيسابوري فيها: (قوله { ولا تعتدوا }، هذا كان في الابتداء، عندما كان الإسلام

1) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص44-45.

2) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 65-66.

ضعيفا)

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [سورة البقرة:256]؟

قال الشيخ: مثل سابقاتها.. نسختها آية السيف(1)..

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَاد } [سورة آل عمران:20].

قال الشيخ: هذه الآية مثل سابقاتها منسوخة آية السيف(2).. فلا منطق أفضل من السيف.

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا } [سورة النساء:63]؟

قال الشيخ: لقد ذكر علماؤنا أن هذا (كان في بدء الإسلام، ثم صار الوعظ والإعراض منسوخاً بآية السيف)(3)

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين } [سورة المائدة:13]؟

قال الشيخ: لقد ذكر علماؤنا أنها (نزلت في اليهود،

---

1) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 96 -97..

2) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 102 -103.

3) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري ص 135.

ثم نسخ العفو والصفح بآية السيف)[1]

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُون } [سورة المائدة:99]؟

قال الشيخ: هي مثل سابقاتها منسوخة آية السيف[2].

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى في شأن رقة النصارى مقارنة باليهود: { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون } [سورة المائدة:82]؟

اعتدل الشيخ في جلسته مسرورا، وقال: هذا ليس عاما بكل النصارى، بل خاص بالنجاشي ووفده الذين أسلموا لما قدموا على النبي ﷺ وهم اثنان وثلاثون أو أربعون أو سبعون أو ثمانون رجلا، وليس المراد كل النصارى لأنهم في عداوتهم كاليهود[3].

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم } [سورة الأنفال:61]

قال الشيخ: هي منسوخة بآية السيف [4].. فما حاجة المسلمين للسلام، وقد أعطاهم الله القوة التي يقهرون بها أعداءهم.

---

1) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري، ص 150.

2) الناسخ والمنسوخ للنيسابوري، ص 152..

3) قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن (ص: 100).

4) قلائد المرجان، ص 176-177.

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين } [سورة النحل:125]؟

قال الشيخ: لاشك أنها منسوخة نسختها آية السيف[1].. فما حاجة المسلمين للحكمة والموعظة وقد من الله عليهم بنعمة القوة والعزة والتسلط.

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُون } [سورة المؤمنون:96].

قال الشيخ: نسختها آية السيف[2].. وذلك واضح لكل عاقل.. فمن أعطاه الله القوة التي يقهر بها أعداءه لا يحتاج إلى أن يدفع بالتي هي أحسن.

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيل } [سورة يونس:108].

قال الشيخ: نسخ معناها لا لفظها بآية السيف[3].

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِين } [سورة القصص:55].

قال الشيخ: هي الأخرى نسخت بآية السيف[4]..

---

1) قلائد المرجان، ص 210..

2) قلائد المرجان، ص 235..

3) قلائد المرجان، ص 252..

4) المصدر السابق ص 253.

وهو واضح لمن تأمله.. أليس الإعراض نوعا من الضعف.. والمسلم قوي عزيز لا يحتاج أن يذل نفسه.

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } [سورة الأحزاب:45]؟

قال الشيخ: لا أحتاج أن أقول شيئا.. فهي مثل سابقاتها منسوخة بآية السيف(1).. وهي واضحة لا تحتاج إلى شرح يبين نسخها.

قال تلميذ آخر: فما تقول في قوله تعالى:{ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم } [سورة فصلت:34]؟

قال الشيخ: هي منسوخة بآية السيف(2).

قال تلميذ آخر:فما تقول في قوله تعالى:{ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير } [سورة الشورى:15].

قال الشيخ: هي منسوخة بآية السيف (3).

بعد أن بقي مدة يجيب كل سائل يسأله بهذه الكلمات وأمثالها، سأله بعض التلاميذ قائلا: إنا نرى – يا شيخنا - لآية السيف شأنا.

قال الشيخ: أجل.. وقد قال الحسن بن فضل في فضلها: (نسخت هذه الآية كل آية في القرآن فيها

---

1) المصدر السابق ص 258.

2) المصدر السابق ص 268.

3) المصدر السابق ص 270.

ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعـداء..)، وقـال ابن حزم في كتابه الناسخ والمنسـوخ: (في القـرآن مائـة وأربـع عشـرة آيـة في ثمـان وأربعين سـورة نسـخت الكل بقوله: اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم..)(1)

بعد أن انتهى الشيخ من حديثـه، وبعـد أن ألغى في وقت قصـير كـل مـا دعـا إليـه القـرآن الكـريم من سماحة وسلام ولطـف وأدب.. خـرجت من المدرسـة وأنا ممتلئ ألما..

وأمـام بابهـا وجـدت تلميـذين يختصـمان، وحولهمـا جمــع من التلاميــذ، فتقــربت منهمــا أبغي الإصــلاح بينهما..

قلت لأشدهما، وقد رأيته آخذا بتلابيب صاحبه: دعه، فأنت تراه هزيلا ضعيفا لا يستطيع أن يقاومك.

قال لي: ما دام كذلك.. فكيف يتجرأ علي، ويتحدث أمامي بما يسوؤني.

قلت: لا بأس.. اعـف عنـه.. لقـد أمرنـا اللـه تعـالى بـذلك، فقـال: { فَاصْـفَحِ الصَّـفْحَ الْجَمِيـلَ } [الحجـر: 85]

تـرك تلابيب صـاحبه، ومـد يـده إلى تلابيـبي، وهـو يقــول: ويلــك.. أتعمــد إلى آيــة منســوخة تريــد أن تجادلني بها.. اذهب وإلا طبقت عليك آية السيف.

ثم أطلـق يـدي، فـأهرعت مسـرعا إلى بيـتي، وأنـا ألتفت خلفي كل حين خشية أن يلحق بي بسيفه.

هــذه قصــتي مــع المدرســتين.. ولكم أن تختــاروا بينهما.

1) الناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص: 12)